
بين
الجدران

الفهرس

(الفصل الأول)

أخذ سيرغي يذرع غرفته ذهاباً و مجيئاً، يداه خلف ظهره المحدودب، و كانت خطواته وجلة و متناقزة، يتوثب بها من طرفٍ في الغرفة لآخر منها، و بين كل حين و آخر يجد نفسه واقفاً أمام النافذة ينظر متوارياً من خلف الستارة إلى الشارع الذي يطل أسفل المبنى الذي هو فيه، و يشرع بجيل بصره على وجوه المارة متفحصاً إياهم واحداً واحداً، يحاول تصيد ضالته التي ينشد قدومها، حتى لمحه أخيراً، منساباً من بين حشد الناس، رافعاً رأسه، مختال المشية، و على وجهه تعابير السذاجة الغافلة.

أبتعد سيرغي عن النافذة، و أتخذ إحدى زوايا الغرفة كمربض له ينتظر فيه سماع صوت طرق الباب، و ما هي إلا دقائق قليلة حتى تحقق ما قد خمنه، فهمَّ مسرعاً ليفتح الباب، هذا بعد أن فك الأقفال المتعددة التي كانت مثبتة على خشبته، و ما أن فتح الباب حتى ظهر أمامه ذلك الوجه ذو التعابير الساذجة الذي رآه في الشارع من خلال النافذة، و تلك الإبتسامة الغبية التي لا تعلن إلا عن فراغ ذهن من تعتلي شفتيه من الهموم، مد سيرغي يده ليبادل المصافحة التي بادرها ذلك الرجل، و تنحى عن طريقه ليسني له المجال للدخول.

أخذ الرجل يتفسح في أرجاء الغرفة، يلقي على زواياها و مقتنياتها نظرات وجيزة غير مكترثة، يداه مجموعتان خلف ظهره، حتى أستدار ليواجه سيرغي، و نطق و الإبتسامة لا تبارح فمه.

« تبدو هذه الشقة في غاية الأريحية، لها طابع يذكرني بمزاج الأقبية، و لا تأخذ تشبيهي هذا كإساءة أو كتحطيط طبعاً، فحتى الأقبية لها نواحيها الجيدة، و لكن ما أقصده

هو لو أن أحداً ما أقتادني لهذه الشقة و أعصب عيني حتى يدلني لها و أستفسر مني حالها، لما خمنت بأنها قابعة في الدور الرابع في مبنى يطل على شارع لمركز تجاري صاخب، فالهدوء و العتمة اللذان يصبغانها و تمتاز بهما لا يتواكبان مع الطابع العام الذي شهدته أثناء مسيري إلى هنا، هذا كل ما في الأمر، . . . ، إذاً أنت سيرغي، أليس كذلك؟ ».

ختم الرجل كلامه بهذا السؤال الذي لم يطرحه إلا ليتأكد من إشراكه لسيرغي في هذا الحوار و يجبره على الدخول في غماره، فوقف مصطلباً في وسط الغرفة، و يداه لا تزالان خلف ظهره، ينتظر بادرة من سيرغي بأن يباشر الحديث، لكن سيرغي عاند و كابد هذا الترقب، و طوال كلام الرجل الموجه تجاهه لم تكن عيناه قد حطتا عليه مطلقاً، حيث إن الأرضية كانت تبدو جاذبة لإهتمامه أكثر مما كان يقال له، و تفاجأ الرجل بسيرغي الذي عاد لما كان يفعله سابقاً قبل مجيئه، يذرع الغرفة ذهاباً و مجيئاً، و علامات التوتر و القلق واضحة في كل تصرف كان يقوم به، حتى ركد أخيراً مكانه، و أستدار بشكل خاطف تجاه الرجل الذي لم تبارح عيناه مسير سيرغي المتوتر، و رفع يده مظهراً إرادته في الإبتداء في قول كلاماً ما، و لكنه ما أن فتح فمه حتى أعاد إغلاقه حالاً، و عاد مرة أخرى لذرع الغرفة، و رأسه هذه المرة قد أخفضه للأسفل مزيداً، و كأنه يبحث عن آثار طريقاً خفي قد يوديه في حال إكتشافه له إلى حل هذا الموقف الصعب الذي وجد نفسه فيه، و مرت الدقائق و هو على هذه الحال، أو قل و هما الأثنان على مثل حالهما، ذلك يذرع الغرفة ذهاباً و مجيئاً، و ذاك واقف مكانه يتتبعه بعيون واسعة، و ضجيج الشارع بدأ يخف جراء ظروف عشوائية لا تتبع

النظام، و في هذا الهدوء الذي تسمع فيه حتى إنطباق رمش الأهداب، نطق سيرغي أخيراً شاقاً الجلد المتشقق الذي أزم شفتيه اليابستين.

« والدي، . . . ، أمات حقاً؟، هذا ما أخبروني به في الإتصال الذي تلقيته عند أوائل هذا الصباح، لكني لم أصدق كلامهم، فأنا قد كنت متأكداً بأن هناك إلتباساً ما قد وقع، لكن الآن و أنا أراك واقفاً هنا أمامي ألحظ بأن هناك شيئاً صادقاً في هيئتك، فمنذ أن لحظتك قادماً من آخر الشارع، كان ذلك يجب بأن يكون لوحده كفيلاً بأن يثبت حقيقة ما قد حدث، فأنت لا تبدو كشخص سهل الوقوع في الخطأ و اللغط في الأحداث، فأنت هنا لتخبرني بموت والدي، و أن هذا حقاً ما قد حدث، و أنه لا يوجد شك في ذلك ».

طأطأ الرجل رأسه بهدوء مظهراً تفهمه لما يشعر به سيرغي، و تقدم نحوه بخطوات هادئة، بينما كان الذعر و الخوف قد بدءا يطغيان على ملامح وجه سيرغي، الذي أرتعد بدنه من تقدم الرجل نحوه، و كأنه رجل محكوم عليه بالإعدام و ها هو السياف يتقرب منه لينفذ الحكم الصادر بجز رقبته، وقف الرجل أمام سيرغي الذي حاصر نفسه في زاوية من الغرفة بعد أن أرجعته قدماه للخلف بدون إدراك منه، و وضع الرجل يده على كتف سيرغي راغباً في تهدئته و إستجلاب حس الطمأنينة في وجدانه، فأغلق سيرغي شفتيه اللتين كانتا متدليتان بإنتظار حكم سيافه الذي كان يتلاعب بمشاعره بدون إدراك منه، حتى نطق الرجل.

« لا تقلق يا سيرغي، فذلك الرجل قد رحل، و لن يعود من جديد، لقد رحل عن هذا العالم، فلا حيز له هنا الآن إلا تحت التراب و من ثم التحلل و التآكل، فالخوف من شخص و هو بهذه الحالة الفانية لا يعقل و لا يجب الإنقياد خلف تبعاته من مشاعر مستنبطة

قد تنبعث منه. و على كل حال، فحتى لو هو كان لا يزال حياً، فهو كان شخصٌ مختلفاً كلياً في السنوات القليلة الماضية عن ما قد تذكره عليه، فهو قد رشد في سلوكه، و أنصب من تصرفاته و إندفاعاته، و أقام من لهجته و كلامه الذي يخاطب بهما من هم حواليه، فالحقيقة هي إن نظرت لها كما أنا أنظر إليها هي إن الرجل الذي تذكره قد مات منذ عدة سنوات، و ما أنا هنا إلا كرسول قد تعطل مشواره و لم يكن بين يديه سبيل سوى التمهل في إيصال رسالته، فأرخي من حالك يا رجل، و إهدئ قليلاً، و تعال نجلس معاً لنتكلم في أموراً هامة يجب أن تعلمها، و يجب أن أفهمها لك، هيا يا سيرغي، على مهلك، . . . ، حسناً، أأمل بأن هذه الجلسة هي مريحة لك ».

تقرمص جسد سيرغي منتقصاً من حجمه و تصلب في جلوسه على الأريكة بعد أن أقتاده الرجل إليها، و جلس بجانبه و هو لا زال مستمراً في التحديق فيه، و أخذ يفك أزرار صديريته بعد أن أحس بنبضات قلبه توجف قليلاً بعد هذا الموقف الذي تطلب منه قليلاً من التريث و الصبر و التعاطف، و أمهل نفسه و سيرغي بعضاً من الوقت يستردان فيه بعضاً من رجاحة أذهانهما، ليخوضا غمار هذه المحادثة التي تُنبِئ بطولها بذهن صافي و واعي.

وضح صوت دقات عقارب ساعة الحائط بعد أن هدأت الأمور، و أعتاد الرجل على جلوسه في هذه الغرفة الجديدة عليه، و أرتاح سيرغي و لو بالقليل من وجود هذا الرجل جالساً بجنبه، و هو بالحقيقة لم يرتح إلا بعد أن أبعد الرجل مصب عينيه عنه، و أخذ يجيلها بدلاً عن ذلك على فسحة الغرفة، يتفحص كل شيئ فيها بتمعن و بدقة، و كأنه مرابي على وشك عقد صفقة لا يريد أن يخسر نقوده فيها.

« إذن، هلا باشرنا في الحديث؟ ».

أستدار سيرغي تجاه الرجل، و تفاجأ للمرة الأولى بدرجة القرب التي كانا هما فيها جالسان، حيث بدت ملامح الرجل و تقاطيع وجهه واضحة، لا يغيب منها شيئ، فهذا ندباً طويل يمر من أعلى حاجبه الأيمن حتى يصل إلى عند إستدارة مقلة عينه فوق جفنه، و ها هما شفتاه قد بدتا مشققتين، لا بد من المسافة الطويلة التي قد قطعها ليصل إلى هنا بدون أن يسقى ماءاً، فتدارك سيرغي حال أمره، و وقف فجأة مظهراً طول قامته الفارع، و همَّ بسرعة بعد أن أستعادت رجلاه قواهما بعد أن كانتا قد خذلتاه طوال هذا الوقت، و أتجه للطرف الآخر من الغرفة، حيث كان على أرضيتها عدة أدوات طبخ و صوان طعام، و سماور و أبريق ماء، فأستل كأساً نحاسي من كومة الصوان و ملأه بالماء من الأبريق، و أقدم راجعاً تجاه الكنبة و هو يهرق شطحات من الماء مع كل خطوة كان يأخذها، و مد يده تجاه الرجل طالباً منه أن يستلم هذا الكأس من الماء، فأطاعه الرجل و مد يده ليأخذه و على وجهه علامات الحيرة و الإستعجاب التي حاول أن يخفيها لكي لا يثير أي حساً شاذ أو غريب قد يشعره سيرغي تجاه ردة الفعل هذه.

أزدرد الرجل جرعتين من الماء قبل أن يضع الكأس على الأرضية بجانبه، و مسح بكمه الرطوبة التي بللت شفتيه و أعادت إليهما نضارتهما.

« إسمع يا سيرغي، . . . ، دعني أبتدئ بتعريف نفسي أولاً، فقط لأزيل أي شك بحدوث إلتباساً ما، أنا موظف في دائرة الشؤون القضائية، في قسم النقد و التمويل تحديداً، و كنت في السنوات القليلة الماضية المعني بتنظيم ممتلكات والدك و تسجيلها و تعدادها، و الحقيقة

هو أنه كان أمرٌ شاقاً نظراً للسرية الشديدة التي كان يعني بها والدك مقتنياته، و في البدء عندما وكلت بتولي قضيته، عاندني بشدة و طردني من عند عتبة منزله، و جابه بكل ما يستطيع أن يمنع أياً كان من الإطلاع على أي من سنداته و أرصدته، و لو لم أكن مخولٌ من قبل السلطة و كنت أستعين بهم مع كل خطوة كنت أريد أن أتخذها بشأن قضيته، لما أستطعت أن أعرف حتى شيئٍ واحداً عن ما يملك، و الأمر الآخر الذي كان يصعِّب علي مهمتي، هو كثرة تقلبات خسائره و أرباحه للصفقات و الرهانات، فهو لم يتوانى عن المجازفة و المخاطرة بأمواله في كل فرصة سانحة تمر من أمامه، فكانت الأوراق و الملفات تتراكم في مكتبي، لا نهاية لها، و كأنه كان متعمداً في فعله لذلك، إما لإغاظتي، أو للتخلص من ما تبقى من أمواله بشكل يستطيع فيه أن لا يظهر إستسلامه، فهو لو تبرع بأمواله، أو حتى لو تخلص منها بإحراقها، فهو بذلك سيعلن للملئ عن كونه قد أنهك جل حياته في جمع شيئاً لا فائدة منه، فتخيل أن تسخر كل حياتك من جهد و مشقة و سهر الليالي في جمع شيئاً ما فقط لتكتشف في النهاية عن عبثيته و عدم جدواه، فإن كنت من ذوي الكبرياء و الصلف الشديد، فذلك سيعد إنتحاراً ليس إجتماعياً فقط، بل سيكون تدمير شامل لما تكون أنت عليه من امرء، و لذلك كانت تقلباته و مزاجه الشائك المسيطران الدائمان على حزم الموقف »،

توقف الرجل عن الكلام، معطياً نفسه وقت من الراحة، و في نفس الوقت مانحاً سيرغي نفس المهلة ليقوم فيها بفهم و إدراك ما قاله و شرحه له، و لكن ما هذه إلا فاتحة، فما سيأتي من كلام سيكون أشد و أغلظ، و أكثر تعقيداً، فألتقط الرجل كأس الماء ليزدرد ما تبقى منه، متأهباً لإكمال حديثه، فيما بدا سيرغي مستعداً لإلتقاط ما سيقال له، و خصوصاً

و أنه قد أصبح في هذه الفترة التي كان يستمع فيها لحديث الرجل أكثر تماسكاً و أشد عزماً على الصمود تحت الرزح الذي كان يوضع على هامته.

« السيد بيتروفيتش، أي والدك، كان في السنوات القلائل التي سبقت تعرفي عليه، قد أقحم نفسه في مشاريع هائلة و ضخمة، مما جعلها مبهمة و صعبة الفهم في بعض جوانبها من كثرة تعددها، و لذلك قام أبان ذلك الوقت بتعيين عدة من الخبراء و المختصين ليتولوا تلك الأمور التي لم يملك لها السيد بيتروفيتش طولة البال لكي يفهمها أو يدرك مكانتها في مشاريعه الضخمة تلك، فكان كل ما يتلقاه من حديث أو معلومات تخص تطورات تلك المشاريع، لا تأتيه إلا على شاكلة أوراق هزيلة تُلخص فيها آخر المستجدات التي كان يقوم بها الخبراء الذين وظفهم من أجل إتمام هذه المهام، و يكون كل شيئ في هذه الأوراق مختصر و موجز في النقط التي يدرجونها، و تكون الموارد المالية التي تطلب منه لتنفيذ المخططات التالية في جدولهم مجمعة في رقم طائل، لا يطنبون فيها بشرح ما سيكون هو إستخدام كل روبل من هذه النقود التي يطلبونها منه، و لكن كل ما يفعلونه لضمان أن تصلهم هذه النقود هو إلحاق ورقة إضافية مع ذلك المستند يترجون و يشرحون فيها ضرورة مطابقة شروطهم و تحقيقها لكي تستمر المشروعات التي هم يبذلون كل وقتهم و جهدهم في رغبة تحقيقها، فعند ذلك كل ما بإمكان السيد بيتروفيتش فعله هو الخضوع لتلك المتطلبات و إن كانت في بعض الأحيان صعبة في تسخير السبل إليها، مما أضطره مرات عدة للإقتراض من رجال أعمال فاحشين الثراء هو على صلة و معرفة بهم، تحت إغراء الفوائد التي سيحققونها بعد إكتمال مشاريعه، و أستمر المنوال على هذه الحال لسنتين، الخبراء يطلبون و السيد بيتروفيتش يحقق مطالبهم، حتى قرر في إحدى

الأيام و بدون سابق إنذار بأن يزور المكاتب التي يواظب عليها خبراءه أولئك و التي كان قد أستأجرها لهم في إحدى البنايات، و ما أن وصل حتى سأل حارس البناية إن كان موظفوه متواجدين حالياً في مكاتبهم، ليتفاجئ برد الحارس عليه بأنهم قد أنقطعوا عن التردد على هذه البناية منذ ما يقارب السنة و النصف، و في الحقيقة المكاتب قد تم تخصيصها لأناس غيرهم، كون موظفيه قد أخبروا المالك عن إنتهاء حاجتهم لهذه المكاتب، فأحتار السيد بيتروفيتش من هذا الكلام، فتوجه مباشرة لموقع أحد مشاريعه، و يجب علي التنبيه في هذا الموضع بأن جميع مشاريعه كانت في مواقع بعيدة تقع على الطرف الآخر من البلدة، و لهذا السبب هو قد أمتنع عن زيارتها طوال هذا الوقت، و لكنه في هذه الحالة وجد نفسه مضطراً للسفر إلى أقربها، و أتخذ القطار سبيلاً للسفر برفقة بعض من مساعديه من الذين يثق بهم، و ما أن وصلوا حتى تفاجؤا بالأمر الصادم، ألا و هو بأنه لم يكن هناك أية مشاريع من الأساس، فكل ما وجدوه هو أراضي جرداء، و هي كلها بالطبع مسجلة بإسم السيد بيتروفيتش، فمن الصعب تزوير مثل هذه المستندات و الوثائق الحكومية، فأستيقن السيد بيتروفيتش لما كان يحدث في السنتين الأخيرتين، فهو قد تم التلاعب به و بأمواله، لقد تمت سرقته!، و مهما بحث و سأل، فهو لم يجد أي أثر لخبرائِهِ المزعومين أولائك، فهم لا بد و أنهم قد فروا منذ فترة طويلة لبلدٍ آخر، و حاول السيد بيتروفيتش أن يتتبع الرسائل التي كانوا يرسلونها إليه طوال ذلك الوقت، لكن ذلك لم يجديه نفعاً، فكلها كانت مقطوعة المصدر، و الرسائل التي كان يرسلها لهم كلها كانت محولة لعدة محطات لا يمكن تتبع إنعراجاتها، فكان والدك أبان ذلك الوقت في ورطة كبيرة، لا مخرج منها، فقد فيها الأمل من جدوة هذه الحياة و من فائدة شرائعها الإجتماعية، فتوقف عن الكلام عن الموضوع و سكت عنه، و على الرغم من إستدانته

للكثير من الناس، فإن بنود قانون دولتنا لا يسمح بتجريد المستدان من كل شيئ من ممتلكاته ما دام هو يملك من رأس المال الكافي لإستعادة ما هو عاجز عن دفعه الآن، فأقتطع السيد بيتروفيتش وعداً تحت القسم في المحكمة على قدرته على ترجاع كل النقود التي فقدها في تلك السنتين، و سمح له القاضي بذلك، و من المهم أن أذكر بإن القاضي الذي سمح بذلك الطلب هو صديق لوالدك، ففسر ما سأقوله كما تريد، فوكلت أنا بعد ذلك كمراقب و مسؤول عن ممتلكات السيد بيتروفيتش، و كما قد قلت لك في البدء، فهو لم يلتزم بميثاقه، و لم يكن مبالياً للنقود التي كان يفقدها مع كل مشروعٍ أو إستثمار فاشل كان يقع في شباكه، و بل هو بدا متعمداً في فعل ذلك مهما حاولت نصحه و إرشاده، و على الرغم من كل محاولاتي لتبيان تلك النقطة أمام مسؤوليي و كيف أنه من الضروري التصدي بالقانون لما كان السيد بيتروفيتش يظهره من تهاون في قسمه، إلا أنهم تجاهلوني و أعطوني خدهم الآخر ».

أستوقف الرجل نفسه، و تنهد نفساً طويل، و كأنه كان يسترجع بعض ذكريات تلك الفترة التي قضاها مع السيد بيتروفيتش، حتى أرجع عينيه على سيرغي، فرآه منكفئ الوجه مسدل الأهداب، يلعب بأصابعه في توتر و قلق، فأبتسم الرجل، و تجرأ بوضع يده على كتف سيرغي في تآخي و تعاطف، و كذلك لينبهه بأن كلامه لم ينتهي بعد.

« بعد أن أستلمت تلك الوظيفة التي أوضحت لك مهامها، و التي أظهر والدك على أثرها تعنته و مقاومته لتواجدي بجنبه، و لكوني كنت في المقابل أحاول بكل جهدي بأن أظهر بأني لا أملك في نجواي أي هدف سوى التفاني و الإخلاص بتحقيق مبتغى وظيفتي، بدأ والدك بالتراجع عن عناده و تجلده، و كنت في بضعة شهور فقط منذ أن أستلمت زمام مهمتي

قد أكتسبت بعضاً من ثقته و طمأنينته، فكنت أجول و أصول كما يحلى لي ضمن حدود الأدب طبعاً بأن أعاود منزل السيد بيتروفيتش بدون أي معاناة أو مشقة، و كان السيد بيتروفيتش قد بدأ يفتح لي بعضاً من نواحي حياته التي بدت صعبة الفك، و كانت أحاديثنا قد تشكلت و تبدلت من كونها عملية بحتة، إلى مختلفة الأنواع، مقتطفة من نواحي الحياة العديدة، و كان واحداً من تلك المواضيع هو موضوع ابنه الوحيد الذي لم يره منذ سنون طوال، أخبرني آنذاك بأنه لم يرى وجهك منذ ما يقارب السبعة عشر سنة، أي مع إضافة السنوات التي أخبرني وقتها بذلك، يكون المجموع هو إحدى و عشرون عاماً!، أنه حقاً لأمر يجعل القشعريرة تسري على جسدي، فأنا لا أستطيع أن أتخيل بأن لا أرى ابنتي و أحتضنها بين ذراعيّ ليوم واحد فقط بدون أن أشعر بالقنوط و الحزن، فما البال بأكثر من عشرين سنة، لقد أخبرني بعدها بأنكما قد أفترقتما في وقت كنت فيها أنت في التاسعة عشرة من عمرك، و على الرغم من الثقة الوطيدة التي تكونت بيننا، إلا أنه لم يتنحى يوماً عن إصراره بإبقاء كل ما يتعلق بك من أمور سراً، فهو لم يخبرني سوى عن إمتلاكه لابن و فقط، لكن ها أنت الآن أمامي، و لكن بعد ماذا؟، فلا فائدة ترجى الآن بعد أن توفي السيد بيتروفيتش ».

قام سيرغي من على مقعده فجأة، و كانت علامات الإشمئزاز و النفور واضحة على تقاطيع وجهه، و نظر شزراً تجاه الرجل، قبل أن يبتعد عنه و يتجه نحو النافذة، حيث وقف مواجهاً صفقتها المفتوحة، ينظر للشارع من تحته، حيث كانت أصوات المارة تصل إلى مسمعه من بعيد و كأنها طنين نحل، و بدا و كأنه كان بحاجة لمثل هذه الضوضاء ليملئ بها ذهنه و لتشغله عن ما قد ألقي عليه للتو، و أدرك الرجل عندها بأن طاقة سيرغي قد نفدت، و بأن

لا مجال له في هذه اللحظة بأن يكمل ما بقي عليه أن يخبره به، فقام هو الآخر أيضاً من على مقعده، و طرقع حذاءه السميك المصنوع من جلد الثيران على أرضية الغرفة الأسمنتية و العديمة السجاد متجهاً إلى بابها، حيث فتحه مريداً الرحيل و إنهاء عمله لهذا اليوم، هذا قبل أن يقف قليلاً ليلقي كلمات أخيرة قد رجى بأن لا نثقل على سيرغي و تحمله ما يفوق قدرته لهذا اليوم.

« إسمع يا سيرغي، أنا راحل لهذا اليوم، و لكني سآتيك غداً، و سأكمل ما تبقى عليك معرفته، و ما سيكون عليك فعله من واجبات قد وكلت إليك، و لكن لا تقلق، فأنت بإمكانك أن ترتاح لهذا اليوم، و أن تعطي نفسك الوقت لتفكر في ما قد قلته لك، و عساك قد حفظته في ذهنك، و لم تنسه، و الآن يجب أن أقول لك وداعاً ».

تقدم الرجل متخطياً عتبة الباب، و كاد يغلقه خلفه قبل أن يستدرك حال أمره، ليطل داخل الغرفة من جديد، و ليرى بأن سيرغي كان قد عطف وجهه ناحية الباب يراقب خروجه، فخاطبه قائلاً.

« يا لخزيي، أين ذهبت لباقتي، فأنا قد أطنبت و أسترسلت في كل ذلك الكلام و لم أخبرك بإسمي حتى، و كم كنت أنت مضيافاً حسناً، فأنت قد قدمت لي كأس الماء ذاك، و جلست قربي تصغي لكل كلمة قد ألقيتها تجاهك رغم عدم رغبتك في فعل أي من هذا، فكان من الأمثل و من حسن الواجب مني هذا لو كنت يقظاً أن أخبرك على الأقل بأبسط الأمور، حقاً أن الأمور الشدائد تنسيك السهال منها، على كل حال يا سيرغي، اسمي ميتيا، ميتيا غورشين، و يمكنك أن تدعوني فقط بميتيا، . . . ، إلى اللقاء ».

طفقت إبتسامة ملغزة على وجه ميتيا، قد دهش منها سيرغي، و بدا مأخوذاً بها راغباً في تفكيك رموزها، و لكن حجب عنه ميتيا إمكانية فعل ذلك بأن أغلق الباب، لتُسمع من خلف الباب الموصد صوت طرقعات حذاء ميتيا الجلدي تعلن عن كل خطوة كان يأخذها، و كان من خلف سيرغي، حيث النافذة ذات الصفقة المفتوحة، صوت المارة قد صخب و أزداد ردحاً مع إقتراب الظهيرة.

(الفصل الثاني)

كانت السماء مصطبغة بالسواد المعتم، ما عدا بعض الومضات التي كانت تعلن ببرقانها عن تواجد بعض النجوم المتناثرة هنا و هناك، و التي كانت تؤكد للرائي مع بريقها على حقيقة علو هامة السماء السامقة.

كان سيرغي جالساً على كرسي حجري طويل مشيد على رصيف الشارع المقابل لمبناه، يداه في جيبي معطفه الطويل، ذو الفراء المنتف و الجلد المشقق، و كانت أدخنة الهواء الساخنة و المتصاعدة من مجاري التصريف تعبق المكان برائحة المخلفات و القاذورات، و لم يمانع سيرغي هذا، فذهنه كان من شدة السرحان و التشتت بأن أعطل حواسه و أوقف رداتها الفعلية العفوية، و كانت إحدى نوافذ شقق المبنى مضاءة بشكل خارج عن إئتلاف الشقق الباقية التي فضل أصحابها إطفاء مصابيحها، عطفاً على تأخر الوقت و رغبتهم في الخلود للنوم و إراحة أعينهم بعد مشقتهم في هذا اليوم الطويل، فكان الشارع خاوياً بأكمله، ما عدا سيرغي الذي كان تواجده هنا في هذه الساعة المتأخرة حيث يخلو له المكان بأكمله لمفرده أمر قد أعتاده و أصبح حدث يومي يترقب فيه الساعات لتمضي بسرعة لكي يخطف معطفه و يلبس حذائه الجلدي الطويل و ينطلق مرتجلاً أسفل السلالم بوطئ حذر لكي لا ينبه أحداً من جيرانه لما يقوم به، و ما أن يخرج من المبنى حتى يتوجه مباشرة، و هذا بعد أن يتأكد من خلو المكان من المارة، إلى الكرسي المقابل لمبناه، و يجلس عليه متصلباً، و كأنه يتماهى مع طبيعة الكرسي الحجري، و هذه الليلة لم تختلف عن أي ليلة أخرى، فها هو الآن جالساً بتصلبه المعتاد، لكن الأمر المختلف في هذه اللحظة عن نظيراتها في الليالي الأخرى هو ما شغل ذهن

سيرغي، حيث ما حاز على السواد الأعظم من أفكاره منذ هذا الصباح هو خبر موت والده، و من ثم قدوم ذلك الرجل الغريب الأطوار ميتيا غورشين، و هو بالطبع لم يكن غريب في أطواره، إلا من وجهة نظر سيرغي الفريدة، الذي كان يرى بأن أي حركة يقوم بها أي شخص تكون هي فيه موجهه تجاهه هي غريبة و غير ضرورية، فحتى عندما يذهب للمتجر ليشتري حاجياته الأسبوعية، و يهم لدفع المبلغ المطلوب و يخاطبه البائع بكلمات الشكر النمطية، فهو يرتعد منها و دائماً ما يتسمر مكانه للحظة في لمحة تعبر عن كونه غير مصدقاً لما قد قيل له للتو.

أستمرت المواضيع في دورانها في ذهن سيرغي، و لم تختلف، فهذه كانت عادة له لم يستطع لها يوماً أي حل، فهو ما أن يطرأ عليه أمر ما، حتى لا ينوء هذا الأمر على تكرار معاودته له بشكل آخر و من طرف مغاير لمرات لا تعد و لا تحصى، و حتى و أنساير سيرغي ما كان يفرضه عليه ذهنه من مناهج شاذة في التعامل مع العالم، و أن أتم ما كان يفرضه عليه من فروض، فذهنه لا يكتفي بأي من هذا، فيختلق و يبتكر جل النواحي الأخرى التي لم تبدو طارئة من الأساس، و لم يعلم سيرغي من أين بدأ كل هذا؟، فهو يذكر أياماً كان فيها على شكل مخالف لهذا، تستطيع أن تقول بأنه كان فيه مشابه و مقارب لبقية الأناس الآخرين، و إن كان لا زال شاذاً بقدر قليل عنهم، فمنذ خمس سنين فقط كان يمتلك على وظيفة تذر عليه مبلغ لا بأس به، و كان يخرج مع زملائه في العمل في بعض الليالي ليأخذوا دوراتهم المعتادة التي يقومون فيها بالتنقل من حانة لأخرى، يسكرون فيها و يغازلون النادلات و أحياناً يقعون في نشابات مع السكارى الأخر، و لم يكن سيرغي وقتها على الوضع الذي هو عليه الآن، أي أنه لم يكن مرتاباً و متوجلاً لكل هبة ريح تعصف بالقرب منه، و في الحقيقة هو يذكر حدثاً ما

قد واجهه في تلك الفترة من حياته، حدثاً قد يكون أحد الأسباب التي جعلته على هذا الوضع الذي هو عليه الآن.

كان سيرغي في تلك الفترة يقطن في حواشي مدينة سامسن، مستأجراً غرفة في منزل مشترك يقع بالقرب من ضفة النهر، و لم يكن الأجر الذي يدفعه ثمناً لتلك الغرفة بتلك الباهاظة، لسبب إنعزال المنزل بعيداً عن مركز المدينة، و لكونه أقرب إلى قطاعات الحقول الشاسعة، و لذلك كان جل المستأجرين الآخرين هم من عمال الحقول البسطاء و بالخصوص من العزاب، فكلهم شابين في أعمارهم، لا يتجاوز أكبرهم سن الرابعة و العشرين، فكان سيرغي بارزاً من بينهم و متميزاً من دونهم، بلباسه النظيف، على الأقل مقارنة بملابسهم الدائمة الوساخة و القذارة، و بعمره الذي يتجاوز أكبرهم بإحدى عشرة سنة، فكانت العلاقة بينه و بينهم غريبة بعض الشيئ، فهم من ناحية كانوا يظهرون له الإحترام عطفاً على عمره و على مكانته الوظيفية، فهو كان مكتفياً بما يكسبه و يفيض، و دائماً ما كان يتفضل على بقية أفراد المنزل بما كان يشتريه لنفسه من طعام و أدوات، و دائماً ما كان يتوقف على هذين الشيئين و فقط، فهو لا يحب بأن يهدي أي أحد منهم ملبس، فذلك بالطبع سيمحي من تميزه و يقارب في هيئتهم له.

و من ناحية أخرى كانوا يظهرون أحياناً تجاهه بعض البغض و الكراهية تجاه تعنته و تكبره اللذان يظهران وجهيهما بين حين و حين، خصوصاً عندما يحاول أحداً منهم تصحيح خطئاً ما قد أرتكبه سيرغي أو حتى الإشارة إلى موضعه، فردة فعل سيرغي عند ذلك لن تكون غير المراوغة عن الموضوع و تذكيرهم بكل الخير الذي يغدقه عليهم و عن كل الإحسان

الذي يلقيه تجاههم، و يختتم كل هذا بعبارة قد أعتادوها منه و حفظوها، « كل ما أطلبه هو بعضٌ من الهدوء بعد يوم عملي الشاق الذي أصرف من راتبي الذي أجنيه بتعبي عليكم و الذي تنعمون منه، هل الأمر حقاً بهذه الصعوبة على أدمغتكم الضحلة هذه بأن تفهمه؟ ».

لكن الأمر الغريب في هذا الموقف بأكمله، أي سكن سيرغي في هذا المنزل البعيد عن مكان عمله، و الضيق في مساحته، هو لماذا؟، نعم، لماذا كل هذه المشقة و العناء الذي يبذلهما في سبيل أن يكون هذا المنزل و لا غيره هو ما يستضيفه؟، أهي رغبته في إظهار غناه تجاه هؤلاء المعوزون و الفقراء؟، أو التبختر بمحصله الدراسي، و إبراز مقدار الثقافة و العلم الذي يقتنص منهما الكثير؟، كل تلك كانت أسئلة محيرة في إجابتها، و مهما كانت الإجابة، فهي لن تكون أموراً مبشرة و محببة، فالسبب بلا شك أمر مريب و معيب.

و كانت صاحبة المنزل امرأة عجوز ضعيفة الحركة و هزيلة الجسم، لا تكلم أحد بالكثير على الرغم من تواجدها الدائم في أرجاء المنزل، فهي تتنقل من بواكر الصباح حتى إنسدال الليل من جهة من المنزل إلى أخرى، تقوم فيها بطبخ الوجبات اليومية، و غسل الملابس، و كنس الأرضية، و دائماً ما كانت تمتنع عن تناول وجبات الطعام مع البقية، و تفضل الوقوف على رؤوسهم فيما هم يأكلون و تراقب صحونهم لترى إن كانت تحتوي على ما يكفيهم، و كما كانت تحظر على نفسها الإنضمام مع الرجال، كانت تفرض المثل على ابنتها، و كانت هذه هي ابنتها الوحيدة التي أنجبتها من زوجها المتوفي الذي كانت صوره تملئ كل ردهات المنزل و تعتلي كل دواليبه، و كم كانت تحبه و تقدره هذه العجوز، و كم كانت تفتقده و تشتاق لتواجده معها، فهي لم تفتح باب بيتها للغرب ليعيشوا معها بأجر إلا من داعي الحاجة و

الضرورة، و إلا فهي امرأة متزمتة و محافظة، لا تحيد عن المبادئ المحافظة و المتزنة التي يتحلى بها الناس من هم من جيلها و خصوصاً القرويون من أمثالها، و لهذا السبب هي كانت شديدة الرقابة على ابنتها، لا تزيح عينها عنها، و دائماً ما تحضها على البقاء قدر الإمكان في غرفتهما الضيقة التي تتشاركانها، و لكون مسؤوليتها أصبحت مفردة عليها لوحدها، كانت من الحذر و من الخوف من عواقب أي تهاون إنها قد منعت و سدت الطريق على ابنتها من أن تتخذ وظيفة لتسد بها حاجتهما الملحة للمال، و فكرت العجوز طويلاً في الموضوع، و رأت كيف أن أهون الخياران أمامها، هي أن تسمح بدخول المتاعب إلى بيتها و أن تلصق ابنتها بقربها، لهو أفضل و أريح على صحتها من أن تبعدها عنها و تجعلها تهيم لوحدها بين الرجال حيث الخطر أشد و أعظم في بلواه و مصيبته، خصوصاً لكون ابنتها تمتع بكثير من الجمال في وجهها، و كثير من الإتساق في بدنها، و كانت ملامحها ذات نضارة باشة تجذب تجاهها كل من تقع عينه عليها.

أستضاق سيرغي يوماً من الأيام من إلحاح أحد المزارعين المستأجرين في حديثه عن ابنة مالكة المنزل، و كان قد أسترسل في كلامه هذا على الرغم من النهي و التحذير من الإسترسال أو التطاول على حرمتها و نزاهتها الذي وعظهم سيرغي به، و كانت هذه عادة من عاداتهم، كان سيرغي قد لحظها في كل مرة يكون فيها هو ماراً عليهم في طريقه إلى عمله أو راجعاً منه، حيث يلاقي بعضٍ منهم مستلقون جانباً على المساحة الواسعة التي تحد الطريق الوعر، متخذون من هذا المنعزل كمخبئ لهم عن تطفل أي أحدٍ كان، سواء أكانت مالكة المنزل، أو المزارعون الآخرون الذين يعملون معهم، و لم يكونوا هم حقاً على وفاق معهم، أي أولائك المزارعون الآخرون، لحيواتهم كانت مختلفة، و تجاربهم متفارقة، فطيش الشباب لا

يجاريه تحفظ الشبيبة، فكانوا يحتفظون بخواطرهم و أفكارهم بعيداً عنهم، و يذخرونها لتجمعهم السري هذا، و في أحاديثهم هذه لا يمنعون ألسنتهم عن أي أحد، و لا يستحون أن يعرِّضوا أيٍ كان لكلماتهم الخادشة للحياء، و من ضمن أولائك التعس الحظ كانت ابنة المالكة التي قد خطفت قلوبهم و أذهلت عقولهم، فكانوا يبتدعون كل أنواع الخيال و السيناريوهات و يقحمونها كبطلة لأخيلتهم، و كلٌ يشارك الآخرين بما أبتكره أثناء عزلته، و كان سيرغي أن ألتقط في أحد الأيام إحدى هذه الأحاديث صدفة أثناء قدومه من عمله، و لم يكن يدري هو إن كانوا هم لم يلحظوه، أو ببساطة لم يظنوا بأنه سيمانع أحاديثهم، لكونه مثقفاً، مما يعني تفتح عقله و قبوله لأغرب النواحي من تصرفات الناس، لكن خالف سيرغي توقعاتهم، و أنقض عليهم متخذاً الفراغ وسطهم كربوة ليخطب عليها كيف أن ما يفعلونه لهو عيب و لا يجوز، و لا يقره أي دين و لا تصرح به أي مبادئ أخلاقية قويمة، و في الحقيقة هم لم يروا ما الخطئ فيما كانوا يقومون به إذا لم يكن هناك أي أحد يمكن أن يتضرر من فعلهم هذا، فهم يدركون كون كل ما يفعلونه ما هي إلا مجرد أحاديث فاضية و لا نتعدى حدود ذلك، و لن تتحول يوماً لحقيقة، فهذا البعد عن الواقع هو ما يجعل أخيلتهم أقرب من التفاهة منها إلى الجدة، و لم يتوانى سيرغي عن الرد على ذلك بكلام مطول لم يخلو من إقتباسات و أقاويل قد أختطفها من عدة كتّاب لم يتعرف المزارعون البسطاء على أسماءهم، مما أربكهم و جعلهم يراجعون أنفسهم، حتى أقتنعوا في النهاية بأن يمتنعوا عن ذكر اسم تلك الشابة في أحاديثهم إلا بالخير و بالنية الطاهرة و الصافية.

و لكن ها هم الآن قد وقع سيرغي عليهم مرة أخرى أثناء مشيه متجهاً إلى المدينة راغباً في شراء بعض الحاجيات من المتجر، فرآهم قد عادوا إلى تلك الأحاديث المشينة و المحرجة، فأستشاط سيرغي غضباً و ضرب بقدمه الأرض بقسوة، مظهراً جديته في التصدي لأقاويلهم، و في هذه المرة كان أحد الشبان أكثر مقاومة لردود سيرغي التي لم تقنعه بأن ما يفعله هو خاطئ، و في الحقيقة هو لم يقتنع أيضاً في المرة السابقة، لكنه فضل الصمت لكي لا يخالف الآخرين، لكنه الآن قد قرر الوقوف في وجه سيرغي و مخاطبته و محاورته نداً لند، مما جعل سورة غضب سيرغي تثور أكثر إحتداداً، و خرجت تلك العبارة التي لطالما كان حذراً من إعلانها، « لا تتعدوا حدودكم مع زوجتي المستقبلية! »، و كان ذلك صادماً و لو أنه لم يكن غريباً، فسيرغي لم يظهر يوماً إهتمامه بتلك الشابة و لو للحظة، فهم لم يروه في أي يوم من الأيام قد وجه لها أي كلامٍ قط، و لم يلقي عليها حتى أية نظرة، مما جعلهم يبتكرون بعض الإفتراضات عن كون هناك خطبٌ ما في سيرغي، إن كانت فتاة بهذا الجمال لا تستطيع أن تجذبه و لو قليلاً، لكن هذه الحقيقة قد ظهرت أخيراً، مما جعل البعض منهم يضحك قليلاً لسبب لم يعلموه، فهناك بعض المواقف التي تفرض نفسها عليك فجأة تجعلك تضحك بصورة غير مستدعاة، و ظن سيرغي إن تلك كانت إشارة منهم لسخافة ما قد قال، فضرب نخذيه غاضباً منهم، و أبتعد مترنحاً غير مصدق بأنه قد جعل سره بين أيدي هؤلاء الحثالة السذج!.

و لما وصل إلى المنزل بعد أن أخرج كل غضبه و نفس عنه خلال طريقه إلى هنا، كانت الشابة، ابنة المالكة، في الردهة مباشرة أمام عينيه، و كانت ردة فعلها لمرآه دائماً ما

كانت تثير شيئاً ما في سيرغي، شعوراً بالغضب يشوبه حساً بالتسيطر و التملك، و كأنها بردة فعلها تلك كانت تؤكد حقه فيها، و لذلك كان سيرغي يبادلها بالتجاهل و الإهمال، مظهراً بذلك أريحيته و إطمئنانه لكون إرتباطهما معاً لهو أمرٌ حتمي، فما دامت الأمور غير شرعية و قانونية بينهما، فهو لن يخاطبها و لن يعمل لها أي إعتبار إلا كشخص لا يزال خارج نطاقه و قدرته على التواصل معه.

و عند دخول سيرغي إلى غرفته في المنزل، رجعت به الذاكرة إلى الوقت الذي إلتقى فيه ابنة المالكة لأول مرة، كان ذلك قبل سنتين، عندما كان يقطن مع أحد زملاء وظيفته في إحدى شقق البنايات التي تعم وسط المدينة، و كان حينها في أواسط أزمة قد حلت به، أزمة قد جعلته يفكر بالنهاية و ما ستؤول به إليه، و كان سبب ذلك هو خبر إرتباط زميلٌ آخر له بإمرأةٍ، و الذي بذلك أضاف عدداً إضافياً لحصيلة المتزوجين التي ترجحت كفتها على حصيلة العازبين في مكان عمله، و لم يكن سيرغي حينها ملماً بهذه الأمور من تعارفات تتم بين الطرفين من الجنسين، و لم يكن هو مهتماً من الأساس بأي من هذا، و لكن هذا لم يمنعه عن محاتاة إنكاره الواضح لغريزته الطبيعية و التي بدت منبئة بأنها ستودي به إلى الوحدة و العزلة لآخر فترة من حياته، و ظلت تلك الفكرة تصول في ذهنه لفترة طويلة قد أقلقت بعض من زملاءه عليه، و خصوصاً الذي كان يقطن معه، و الذي تفطن لسبب هذا الوجوم و الكدر الذي حل بسيرغي، فما كان منه سوى أن يدعوه لإحدى سهراتهم الليلية التي يقضونها في السكر و اللهو، و كان سيرغي قد أكثر من تعذراته عن مرافقتهم في الفترات الأخيرة عندما كانوا يتفضلون عليه بأن يرافقهم، على الرغم من معرفتهم بما ستكون عليه خاتمة الأمسية التي

يكون فيها سيرغي متواجداً معهم، و لكن هذه المرة ألح عليه زميله بأن يأتي معه و ستكون هذه الأمسية تخصهما هما الأثنان فقط، فلا داعي للقلق من ما سيظنه الآخرون به، إن كان ذلك ما يزعجه و يمنعه عن مرافقتهم، فوافق سيرغي، و توجها إلى إحدى الحانات، و كان ذلك في وقت مبكر من الليل، و ما زال الناس يخرجون لتوهم من أماكن عملهم، و وهج الشمس لا زال يعاكس صفيحة السماء اللازوردية، و أثناء طريقهما حيث كانا متوجهان للحانة، توقف زميله عند إحدى كشكات البائعين الذين يعمّون الطرق، مريداً شراء علبة من السجائر، فيما ظل سيرغي خلفه ينتظر إنتهاءه من الشراء، و عند ذلك، لمح بصورة خاطفة ما قد جذب إنتباهه و شد على وتر فؤاده، جعله يعزف مقطوعات الوله و الغرام، و لم يكن ذلك شعوراً من السهولة أن يحس سيرغي به، بل في الحقيقة هو لم يعاوده منذ ما يقارب العشرين سنة و تحديداً في فترة مراهقته آنذاك، فتفاجئ زميله عندما ألتفت للخلف بعد أن دفع نقود علبة السجائر بأن يرى أن سيرغي قد أختفى دون أثر.

تتبع سيرغي الشابة التي كانت تحمل بين ذراعيها صندوق خضروات، متجه في خطواتها للطريق الذي يودي لخارج المدينة، غير منتبه لكون هناك شخصاً ما يتبعها، حتى وصلت أخيراً لمنزلها، حيث كان والدها جالساً عند عتبة الباب و رحب بها لعودتها السالمة، و كان ذلك الرجل ضعيف البدن، هزيل الوجه، تنبئ تقاسيمه على مرض خطير قد عصف بصحته، فوقف سيرغي من بعيد يحدق فيهما لدقائق، حتى رجع من حيث أتى، و لاقاه زميله و شريكه في السكن عندما رجع من سهرته في وقت متأخر من الليل، و رأى بأنه لا يزال مستيقظاً، و لكن على وجهه تعابير مخيفة، و مجنونة، و كان من الواضح بأن سيرغي كان

يخاطب نفسه لفترة طويلة قبل أن يدخل عليه زميله و يقطع عليه حبل أفكاره، و لم يفت على زميله عن كيف أن مزاج سيرغي قد تغير عن سابقه، و لو أنه كان هذا هدفه من دعوته للذهاب معه إلى الحانة من الأساس، إلا أن هذا التغير لم يكن مطمئناً، و لا يبدو بأنه كان تغيراً للأحسن، فسأم زميله من وضعه، و نفض كل سبل حيله لمساعدته، و في الأسبوع التالي أخبره هذا الزميل عن كونه قد ألتقى بإمرأة قد جذبته في ذلك اليوم عندما أختفى سيرغي و أضطر هو أن يذهب للحانة بمفرده و ألتقى بها هناك، و يبدو بأن الأمور بينهما تبشر بخير، و ربما في الأشهر القليلة ستكون زوجته، و لذلك كان من المفروض من سيرغي أن يتدبر أمر سكنه من الآن، و يبحث عن شقة أخرى ليسكن فيها، على الرغم من صعوبة الحصول على واحدة بسعر جيد و في مكان قريب، تجاهل سيرغي هذه الكلمات، و كانت من عادته في أوقات فراغه كل يوم أن يجوب شوارع المدينة، و خصوصاً في الأسواق الرخيصة، باحثاً عن تلك الشابة، و كانت رغبته هو أن يفتعل حادثاً ما معها، ليقحم نفسه عنوة في حياتها، و لم يكن يريد فعل ذلك بالبحث عنها في الطريق الذي أتخذته تلك المرة لمنزلها، فذلك سيفضح نواياه و يظهر تعمده، فمضت الأيام و الأسابيع، و لم يلمح تواجدها قط، حتى رآها أخيراً في أحد الأيام، لكن هذه المرة كانت برفقة امرأة عجوز، تشابه في بدنها الهزيل ذلك العجوز الذي رآه في تلك المرة و خمن بكونه والدها، و لسبب ما شعر سيرغي بحدوث خطب ما في أسرتهم، فقط من رؤية ملامح وجهيهما الكئيبة و الواجمة، و من لباسهما الداكن، و لا يتطلب الأمر عبقرياً ليفهم ما قد حدث.

رأى سيرغي الشابة و والدتها تبتعدان عن لوحة ما مسندة على أحد المتاجر، ملصق عليها أوراق غزيرة في عددها، و متراكمة فوق بعضها البعض، و ما أن أبتعدتا عنها، حتى هجم على اللوحة، و قرأها.

في غضون أسبوع كان سيرغي قد أنتقل من شقة زميله، على الرغم من إلحاح الآخر على عدم وجوب فعل ذلك بهذه السرعة، و خصوصاً و أن المكان الذي سينتقل إليه لا يناسب حاجاته من مسكن، و كيف يمكن أن يكون كذلك و هو يقع خارج المدينة!، فكان الجميع من زملاءه في العمل متعجبين و مستغربين من تصرفه هذا، و لكنهم كانوا في الوقت نفسه مقتنعين بأن هذا التصرف يتناسب مع ما يظنون سيرغي عليه من امرء، فهو غريب الأطوار، و منعزل و معتكف عن معظم الناس، عدا بعض الأشخاص لأسباب بدت إعتباطية من وجهة نظرهم.

كره سيرغي العيش في ذلك المنزل المتهدرك و المتبعج في تصميمه، فكانت الجدران غير قويمة في مسحها، و كانت الأرضية مقعرة في بعض الجوانب، التي تجعلك أحياناً تنزل بسرعة تألم ركبتيك فيها، و بغض سيرغي المستأجرين الآخرين، الذين رآهم من السذج و الجهلة الذين لا يستحقون العيش معه في نفس المكان، و لكنه أضطر لمحاباتهم في بعض الظروف لكي لا يثير أية مشاكل قد تتسبب بطرده من هذا المنزل، و لم يكن كل هذا إلا لكي يقرب نفسه من تلك الشابة التي لم تعطه يوماً أي إهتمام، و لم يكن هو وحيداً في تلقيه لهذه المعامل، فهي كانت في طبعها غير مكترثة بأي مما يقع حواليها.

و كان سيرغي يمضي الليالي يسرح في أحلامه، التي تكون فيها العجوز، مالكة المنزل، قد توفت لتوها، و الشابة تغزوها الحيرة و يركبها الخوف من الضياع، حتى ينقض سيرغي على هذه الفرصة مظهراً شهامته و حسه بالنخوة، ليخطفها من هذا الوضع الصعب و الشائك، و سيكون ذلك بشكل طبيعي لا يريب أيٍ كان، لا هي و لا أحداً آخر من القاطنين، و لهذا كان يجب عليه أن لا يظهر أي إهتمام تجاهها في الوقت الحاضر، و إن كانت هذه هي النقطة المهمة التي فرضها على نفسه، و شدد رقابته على تنفيذها و التقيد بها، لكن ما لم يحسب له سيرغي حسبان، هو أنه بذلك يقطع سبل التأكد من إن كانت تلك الشابة معجبة به من الأساس أم لا، أو إن كانت حتى من الصنو الذي يسهل عليهم الوقوع في الأفعال الطائشة و المتسرعة، كالزواج من شخص لم يخاطبوه قط في حياتهم فقط لمجرد فقدانهم لمصدر معيشتهم.

مضت الأيام بهدوء و تلتها الأسابيع الطوال التي أكملت رسم الصورة الكبرى للون البياض الممل، كان فيها سيرغي يقوم بنظامه اليومي المعتاد، يستيقظ في الصباح، ليتناول الفطور مع بقية المستأجرين، و يتظاهر بعدم إهتمامه لوقوف ابنة المالكة على رؤوسهم تنظر إلى إحتياجاتهم، و على عكس المزارعين الذين لم يتوانوا عن إصدار طلباتهم و أوامرهم التي يطرحونها بأساليب يتعمدون فيها التلميحات و الغمزات، كان سيرغي لا يتناول سوى بعض لقمات لا تسد جوعه لينطلق إلى عمله في وسط المدينة، و عند الظهيرة المتأخرة يرجع إلى المنزل ليحبس نفسه في غرفته، منعزلاً عن البقية الذين كانوا يفضلون قضاء وقتهم في الردهة الأساسية، حيث كانت كلى من العجوز و ابنتها في صحبتهم على الدوام، فالعجوز على رغم حرصها على ابنتها، إلا إنها لم تكن من قسوة القلب بأن تحرمها من الأحاديث الشيقة و الممتعة

التي كان المزارعون يتحادثون بها و يتناقلونها فيما بين بعضهم البعض لما حدث لهم أثناء يومهم هذا في العمل، فكان سيرغي يستمع لأصداء تلك الأحاديث التي كانت تملئ حيز غرفته، و تجعله كالشبح الذي يَرى و يَسمع، و لا يُرى و يُسمع، محبوساً خلف ستار لا سبيل لإلقاءه إلا بكسر تعويذة العقل المتصلب على عاداته.

مرضت العجوز في إحدى الأيام فجأة، و أُحضِر الطبيب ليكشف عليها و يرى ما صنو علتها و ما هو علاجها، فكان كلام الطبيب مطمئناً بأن ما هذا سوى ضمور بسيط في العضلات، سينقضي بعد إستراحتها لبضعة أيام على فراشها، فأنفردت الشابة بإعتنائها بشؤون المنزل لوحدها، و كانت علامات القلق و التوتر بادية بوضوح على تقاطيع وجهها الذي لطالما كان متصلبٌ على هيئته الجمالية كوجوه تماثيل آلهة الأغريق القدامى، و هذا ما حدا جميع المستأجرون بأن يغيروا من طريقة تعاملهم و حديثهم معها، و تركوا عنهم السخف و اللعب، و أتخذوا طريق الحذر و الشفقة تجاهها، و كانوا لا يتباطؤون في مساعدتها في كل مرة يرونها تعاني و تشاقي في أمر ما، فكان حس الأخوة و التعاضد هو الطابع الأشمل الذي طغى على هذا المنزل، ما عدا سيرغي الذي كان قد بدأت تخيلاته في التفاقم و التتخم، و كانت رائحتها قد بدأت تعبق جو غرفته، و كان الوجل و الترقب يحددان كل حركة يقوم بها.

أتى اليوم الذي كان الجميع يخشاه، هذا إذا أستثنينا سيرغي، و عاد الجميع من المقبرة بعد أن واروا جثمان الفقيدة، و أيدي المزارعون كانت تمسد كتف الشابة و راحتهم تمسح على ظهرها، مظهرون تعاطفهم تجاهها، و مدركون في نفس الوقت بأن ما هي إلا أيام قلائل حتى يفترقون جميعاً عن بعضهم البعض من العيش تحت سقف واحد.

طرق أحد المزارعون باب غرفة سيرغي الذي لم يحضر المقبرة معهم، بل هو لم يظهر وجهه بتاتاً طوال فترة تحضير الجنازة، و كان قد حبس نفسه في غرفته مباشرة بعد أن رجع من المدينة، حيث قدم طلب إعطاءه إجازته السنوية حالاً لسبب طارئ و عاجل لا يؤجل، وما أن عاد حتى حبس نفسه في غرفته، لا يدري عنه أحد شيئ أو أمر لإنشغالهم لحدث وفاة المالكة.

جلس الرجل مع سيرغي على حافة فراشه، و أخذ يتحسس كم كان هو لينٌ و مريحٌ هذا الفراش، قبل أن يجلب سيرغي إنتباهه بسؤاله عن ما كان هو الأمر الهام الذي يريد مخاطبته فيه، و لاحظ الرجل كلام سيرغي الجاف و نبرته الغليظة والمعادية، و تجاهل عن هذا الأسلوب الخشن الذي يبديه تجاهه و سأله عن سبب إختباءه الطويل هذا عنهم، و لماذا هو لم يحضر الجنازة حتى، و لم تكن ردة فعل سيرغي سوى أن يتجاهل ما قد سُئل عنه و بأن يفصح مباشرة عن نواياه بعد أن فقد كل الأسباب التي قد تجعله يخفي أيٍ منها، أنصدم الرجل مما أخبره سيرغي به، أحقاً هو يخطط للزواج من ابنة المالكة، و فقط بعد يومين من وفاة والدتها؟، و لماذا لم تخبرهم هي بأي من هذا، على الرغم من تواجدهم معها طوال هذين اليومين؟، فكان جواب سيرغي أكثر صدمة و إثارة للإستعجاب، فهو لم يخاطبها بأي من هذا بتاتاً، و في الحقيقة هو لم يحادثها مطلقاً و لو في أتفه الأمور لحد هذه اللحظة!، فضحك الرجل مما قد سمعه، بعد أن رأى بأن لا سبيل بأن تكون غاية هذا الكلام إلا مزاح و هزال، يحاول به سيرغي تخفيف حس الغم و الكآبة اللذان حلا على قاطبة المنزل، و لكن كانت تعابير وجه سيرغي الغاضبة و لون وجهه الذي أحمر دليلاً يثبت له بأن كلامه لم يكن مزحٌ و لا

عبثٌ، و منذ متى كان هو طبعه المزح و العبث؟، فقام الرجل من مكانه نافضاً رأسه و ماطاً شفتيه مستنكراً ما يخطط و ينوي سيرغي لفعله، و خرج و هو يتمتم شتى الشتائم و الكلمات المعاتبة تجاه ما هو ينوي على فعله، و لم يهتم سيرغي بأي من هذا، فزواجه من ابنة المالكة لهو أمر حتمي، قد تقرر منذ أول لحظة رآها فيها.

كانت الشابة جالسة في الردهة الأساسية، ملتبسة بثياب الحداد السود، تمسح الدموع التي لا تريد أن تفارق ملمس وجنتيها، و أرتعبت من ظهور سيرغي أمامها فجأة، بطوله الفارع و المهيمن، يرمقها بنظرات حاسمة و واثقة، فناظرته من أعلاه لأخمصه غير مرتاحة من هذه الوقفة، و تأكدت ظنونها بعد أن فتح سيرغي فمه، و ألقى عليها الكلمات التي أرعبتها و جعلتها تكشر وجهها على مختلف التعابير، فهل فقد هذا الرجل عقله؟!، أم أنه كان دائماً على هذه الصورة، و لكنها لم تلحظ ذلك لكونهما لم يتخاطبا يوماً ما؟، لم تهتم الشابة بأجوبة هذه الأسئلة، بل هي لم تجد المتسع من الوقت لكي تفكر و تحلل فيها، فلن يغير أي من ذلك النتيجة، فكانت ردة فعلها هي الغضب و الأزورار على تصرف سيرغي المشين و المعيب هذا، و لم تتوقع هي بأن ردة فعل سيرغي أن تكون سوى المراددة و محاولة إقناعها بمقترحه، لكنه خالف توقعها بأن أستمر على وقفته هذه، غير فاتحاً فمه سوى ليفغره منصدماً لرفضها، و ليس هذا فقط، بل عدم تصديقها بأن هذا الخيار الذي يطرحه كان متاح على الطاولة من الأساس!، و أخبرته أيضاً لتحطم آخر بذرات أمله، بأنها لم تفكر فيه مطلقاً في أي يوم من الأيام سوى كرجل غريب الأطوار و منطوي على نفسه، و بأنها لم تشعر يوماً بالإرتياح بالقرب منه، فنظراته و إن

كانت لا تحط عليها لكنها لطالما أثارت ريبتها و حثت قشعريراتها للنهوض، فهي ببساطة لا تطيقه و لا تحابيه، فما البال في الوقوع بحبه و الزواج به!.

لم تمضي سوى بضعة أيام قبل أن يباع المنزل، بعد أن أنتقل الجميع منه إلى مساكن أخرى، فالمزارعين تفرقوا على مختلف المنازل الأخرى القريبة من حقولهم التي يعملون فيها، و الشابة أنتقلت للعيش مع أحد أفراد عائلتها البعيدين النسب، في منطقة لم تعلن لأي أحد، سوى بكونها بعيدة عن هذا المكان، أما سيرغي فكانت الصدمة من قسوتها بإنها لم تظهر آثارها عليه بوضوح و مباشرة، فهي كالبركان الذي تغلي حممه في قاعه، و تتصاعد تدريجياً فتحرق كل شيئ بالداخل أولاً قبل أن تسيح على كل ما حوالي البركان في الخارج، فكانت السنوات كفيلة بإظهار هذا التحول الذي طرئ عليه، بأن أستقال من عمله بعد أن أستمرت تغيباته بدون أعذار وبدون إعتذار، و رفضه المستمر لدعوات زملائه بمرافقتهم في خرجاتهم، حتى إنتهى به الحال على ما هو عليه الآن، حبيس غرفته المستأجرة في مبنى في وسط المدينة.

نهض سيرغي من على الكرسي، نافضاً الغبار الذي تجمع على معطفه، و كان هدوء الليل عظيماً و ظلمته جبارة تجبرك على الإنطياع لنزواته، دخل سيرغي المبنى و أرتقى السلالم متوجهاً لشقته، و ما أن وطئت قدماه أرضيتها و خلع معطفه حتى هوى جسده على فراشه ليغط في نوم عميق، مترقباً ما سيخبره به ميتيا غورشين عند صباح الغد.

(الفصل الثالث)

كانت الصور المبعثرة و التلميحات المشتتة تغزو أحلام سيرغي، تجعله يتقلب على فراشه المهترئ، و العرق قد أبلل ملابسه و جعل منها خرقاً بالية، يداه تعتصران طرف شرشف السرير، و ما أن زادت حدة الألم أكثر مما يحتمل حتى أفلت إحدى يديه من الشرشف ليصفع بها وجهه و كأنه يجبر نفسه على الإستيقاظ بعد أن أدرك بأن لا سبيل له للهروب إلا من خلال ذلك.

كان المنظر من خارج النافذة أبيض بصبغة رمادية، قد طغى الثلج على كل الملامح و الإشارات التي تُعرِّف بهوية الشارع، و لا زال يهبط بتماوجه المترنح من أعلى صفيحة السماء التي بدت سامقة حتى و هي بهذا الحال من التناسق و التماثل في ألوانها مع لون المشهد الطاغي.

تعمد سيرغي أن يزفر نفسه خارج النافذة، و كأنه يريد أن يقيس برودة الجو بحواس يراها أكثر حساسية، غير مرتاح لما تخبره به عيناه، يداه على إطار النافذة السفلي، و رأسه يطل خارجاً، و في الحقيقة هو بدا سعيداً بهذا الجو القارس، و لو لم نكن نحن مطمئنون كساردون لهذه الرواية لما يشعر به سيرغي، لما أستطعنا أن نلمح تلك الإبتسامة الضئيلة التي أرتسمت على طرفي شفتيه، و حتى لو لمحناها كأشخاص من خارج إطار الساردين لظنناها لمحة تعبر عن الإمتعاض عوضاً عن السعادة.

كان سيرغي يذرع الغرفة ذهاباً و مجيئاً كعادته كل يوم، عندما سمع صوت طرق الباب، فتوقف مباشرة على عقبيه، و جُحِظت عينيه على وسعهما، و علامات الإرتباك و الذعر طاغية على وجهه، و عوضاً عن فتح الباب حالاً، أخذ يزيد في مشيه و دورانه على محيط

الغرفة، و ظفر إبهامه بين صكتي أسنانه، يقرضه حتى أذواه عن لحمه، و الطرق لا زال مستمراً، و يطّرِد في إرتفاع حدته، و كأن صبر الطارق بدأ ينفد، و خصوصاً و أن صوت ردح سيرغي في الغرفة لا بد و أنه مسموع من الخارج، مما يعني تعمد سيرغي في تجاهله هذا و إمتناعه عن فتح الباب.

طفق الكيل بميتيا الذي توقف عن الطرق للحظات، قبل أن يشرع بمناجاة سيرغي من خلف الباب، بعد أن رأى بأن لا سبيل له غير ذلك، و في صوته نبرة لم يتوقعها سيرغي بأن تكون بهذه السماحة و الشفقة خاصةً بعد كل هذا التجاهل الذي أبداه تجاهه، و كأنه كان متفهم للصعوبة التي تفرض نفسها على سيرغي و تمنعه حتى عن إرادة مقابلة الناس وجهٌ لوجه.

« أنت بالداخل، ألست كذلك يا سيرغي؟، لا جدوى من تجاهلي و الإدعاء بعدم سماع صوت طرقاتي، أِعلم بأني لا أضمر لك أي شيئ، أياً كان، فما أنا إلا رسول، لا أملك بيدي حيلة لإلحاق أي ضرر عليك، فهيا يا سيرغي، فقط أفتح الباب لي، فعظامي بدأت تنخرها برودة الجو، فالردهة هنا في الخارج لا تسخنها حرارة أي بدن، فما هي إلا معبر و طريق، فلا يجوز أن تتركني هنا في الخارج أرجف عظامي من شدة البرد لحد المرض، أليس كذلك؟ ».

مد سيرغي يده من بعيد تجاه مقبض الباب، فبدنه أراد التصرف حيال هذه الإستغاثة و الرد عليها قبل ذهنه، و لكن ما أن أستيقظ ذهنه من ردة الفعل المتسرعة هذه،

حتى أنب بدنه، و أرجع يده مكسورة إلى جنب ردفه، و أخذ يبتعد أكثر عن الباب، متراجعاً بأقدام تمشي على أطراف أصابعها، و رد عليه قائلاً.

« و ماذا تعرف أنت عن المعاناة و المرض؟، أتراني في هذه الدرجة من الغباء لآخذ ما تقوله بأنه صادر من نوايا حسنة، أو أنك في الحقيقة قد تكون مهتمٌ بأي مما يخصني، فما أنت هنا إلا لتنهي ما تبقى من عملك، و لتزيح أعباء وظيفتك عن كاهلك، و من تريد أن تضع عليه هذه الأحمال سواي؟، أليس هذا هو الموضوع بأكمله؟، فأسمعني جيداً، و أصغ لكلماتي التي أردت إخبارك بها منذ الأمس، لكني تغاضيت عنها، فقط لأعطيك الفرصة لتظهر لي بعض الشفقة و التعاطف، لكنك ها أنت الآن تظهر حقيقتك كشخص سيئ، و محتال، تريد أن تتلاعب بي، فقط تراني كشخص سهل الإقتياد و سهل في الوقوع تحت تأثير الخدع و الحيل، لكن هذا الشخص الغافل قد أستيقظ، و لن يسمح لك بأن تطئ على عنقه فقط لكون ذلك أريح لك، و أنت حر إذا كنت تريد مناوشتي و معاركتي في ذلك، و لكن إِعلم بأني لن أتراجع عن موقفي، فإرحل من هنا، و لا تعود مرة أخرى، فأنا لا تربطني أية صلة أو علاقة مع ذلك الرجل، و لم أرغب يوماً بأن توجد هناك صلة بيننا طوال فترة حياتي، فما بالك الآن و هو قد مات، فموته يجب أن يكون خبرٌ يضع الحجر الأخير في الحائط الذي بيننا ليسد به الفجوة الأخيرة، لا أن يكون الجلمود الذي يدمر الحائط!، كلا!، و ألف كلا، لن أسمح بكل تلك السنوات التي بغضته فيها و كرهته حتى المرض بأن تذهب هباءً و ضياعٌ، هل تسمعني؟، لن أسمح بذلك أبداً، فأرحل عن وجهي، هيا أرحل، أريد أن أسمع صوت خطوات

حذائك تصدح في الردهة حتى يخف صدى وقعاتها، و لتختفي بعدها للأبد، و أنسى قدومك إلى هنا من الأساس، و أنسى ذلك الرجل معك، هيا أرحل! ».

وقف سيرغي مكانه، و العرق يتصبصب من جبينه ليتساقط على الأرضية، فكان ذاك كل الصوت الذي قد صدر من سطح الأرضية، سواء أفي الداخل أو في الخارج، فأصاخ سيرغي من سمعه مريداً التحقق من إن كان قد فاته صوت رحيله، فهل هو رحل خلال إلقاءه لكلامه و لم ينتبه لذلك؟، فتقدم سيرغي تجاه الباب، و ألصق أذنه على خشبة الباب، ليسترق أي صوت قد يصدر من الجهة الأخرى، غير أصوات الريح التي كانت تتسرب إلى داخل المبنى من تفاريج نوافذ الردهات و الممرات، لكنه لم يسمع أي صوت قد يصدر من شخصٍ ما، فمد يده تجاه قبضة الباب، و أداره ليفتحه، بعد أن أفك الأقفال باليد الأخرى، و فتح الباب ببطئ و حذر، ليطل برأسه و لينظر بعين واحدة من زاوية ضيقة إلى الخارج، فلم يرى أحداً، فأرتاح من ذلك، و كاد أن يعيد غلق الباب، حتى أمسكت يد بالباب و منعته من الإنغلاق، ظهر ميتيا فجأة أمام سيرغي، بعد أن كان مستتراً خلف الحائط على جنب الباب، و كانت نظرته حادة، و وجهه يكشر ببعض من الإمتعاض و الكراهية، دفع الباب بقوة، و أقحم نفسه للداخل، و أندفع سيرغي مترنحاً و غير مدرك لسرعة تواكب الأحداث، فيما أغلق ميتيا الباب خلفه ليستدير مواجهاً سيرغي، قبل أن يتوجه مباشرة تجاه المدفأة، ليضع يديه فوقها من على بعد، و أخذت أنفاسه تتصاعد في إعلان لعودة الحياة و النضارة إلى بدنه.

كان سيرغي جالساً على حافة فراشه بالكاد يستند عليه، يداه تضغطان على طرفه، و بدا كأنه متأهب للقيام بأقصى سرعة من فوقه في أي لحظة، فيما كان ميتيا جالساً القرفصاء في الطرف الآخر من الغرفة، حيث "المطبخ" كان متواجداً، فبضعة أدوات و صواني طبخ، و أكواب و ملاعق و سكاكين صدئة ليست كفيلة بأن نطلق ذلك اللقب كما هو و بكامل إستحقاقه بدون غمزات لتحيط به، صب ميتيا كوباً من الماء من الأبريق، و أخذ يتروى في شربه، فيما أستمر سيرغي في مراقبته صامتاً و وجلاً.

قام ميتيا من جلسته و أستدار ناحية سيرغي، و أخذ يخطو بخطوات وطئة و هادئة، و رأسه يجوب على جل الغرفة، و كأنه لم يعتاد بعد عليها، و الغرفة بالحقيقة لم تكن بتلك الغرابة ليعطيها كل هذا الإهتمام و التمحيص، لكن المذهل هو كون سيرغي الذي هو غريبٌ في أطواره يعيش في غرفة بهذه الإعتيادية.

أرتاب سيرغي من نظرات ميتيا التي أتخذت فجأة صبغة بشوشة و مرحابة، و بدا سيرغي مستعدٌ للنهوض في أي لحظة من على الفراش و سحبه من ذراعه و الإلقاء به خارجاً، فهو يملك القوة الجسدية لفعل ذلك، فما ميتيا إلا رجلٌ صعلوك لا يبدو بأنه قادر حتى على مشاكسة امرأة عجوز.

نطق ميتيا ليكسر تعويذة الصمت هذه التي كانت قد ألقيت عليهما.

« إذن يا سيرغي، ماذا فعلت بالأمس؟، أتمنى أنك قد فكرت طويلاً بما قد قلته لك، و أن تريحني بأن لا أعيد تلك المقدمة الطويلة و المنهكة التي قد ألقيتها عليك بالأمس، و قد

تظن بأني ما أنا هنا إلا للتسكع إلا أني في الواقع لا أملك سوى متسع قليل من الوقت لأحادثك فيه، فأنا لدي قطار لألحقه عند الظهيرة، و لذلك تراني قد أقحمت نفسي عليك عنوة، و أنا أريد أن أبدي إعتذاري لفعل ذلك و أخافتك، و لكنك لم تسنح لي سوى هذا السبيل لأتخذه ».

هز سيرغي رأسه بخنوع و بإنكسار قابلاً إعتذار ميتيا، فهو لم يكن بيده حيلة سوى فعل ذلك، و خصوصاً بعد أن قدم ميتيا عذراً قوياً لا يرفض.

ما أن أحس ميتيا بهذا التفاهم الذي قام بينهما، حتى دعى سيرغي بحركة من يده لينضم معه للجلوس على الكنبة كما فعلا بالأمس، فحتى بعد ذاك الفعل الطائش الذي قد قام به منذ قليل بإقحام نفسه عنوة في غرفة ابن موكله المتوفي، إلا أنه ما زال يجب عليه أن يحتفظ بإحترافيته المعتادة.

كان الجو المشبع بالتوتر و الحرج يخضب خدي سيرغي بالحمارة، و خصوصاً من هذه الرعونة التي هو يبديها طوال هذا الوقت، و لهو حقاً و دائماً ما يخجل من إِنعدام الشخصية هذا الذي حل به في السنوات القليلة الماضية، و عن كيف هو دائماً ما يجعل الطرف الآخر ينوب عنه في القيام بكل شيئ، فكان ميتيا هو البادي في الحديث، متخذاً دور السائل و المجاوب.

« إذن يا سيرغي، لا بد و إنك قد تسائلت في خاطرك عن ما هو الهدف من قدومي هنا في هذا اليوم، و خصوصاً بعد أن أخبرتك تقريباً بكل ما هنالك لمعرفته عن الوضع، و

لكن تذكر، بإني قد أخبرتك أيضاً عن واجبات يجب عليك فعلها، و هذا لا بد و أن يكون أمرٌ محيراً بالنسبة لك، و خصوصاً و أنك لا يمكن أن نتوقع أن تنال أياً من ورث قد يتركه لك والدك، بعد أن أخبرتك بحال والدك المادي عند وفاته، و لا بأن تقع عليك تبعات من علاقات والدك الإجتماعية أو الأسرية، فهو لم يكن قريبٌ من أي أحد، فلا أصدقاء له، سوى زملاء في المهنة، و هؤلاء بعد أن أوقعهم في ورطة إستدانته منهم و عدم قدرته على إرجاع نقودهم قد بغضوه و كرهوه، و هو بالتالي لا يملك أي عضو أسرة آخر غيرك، لا زوجة، و لا ابناء، و لا أخوان و لا أخوات، و بالطبع بعمره الكبير هذا لا أم و لا أب، فأنت كل ما كنت لديه، و حتى هذا لم يدم طويلاً كما تُحكى الحكاية، فهو كان وحيدٌ بدونك لعشرين سنة، و عطفاً على الوضع الذي أنتهيتما عليه من فراق، فلا أظن بأن علاقتكما كانت بتلك الدرجة من القرابة و المحبة من الأساس ».

أهتزت شفتا سيرغي، و ترقرقت عيناه، تأثراً بما قد ألقي عليه من كلام، فلم يكن كل هذا الكلام هو صادرٌ من مجرد رسول يوصل رسالته، بل هو عتاب و تأنيب موجه لسيرغي، و إن لم يكن يتفق هو مع تلميحه إلى أنه قد كان قاسيٌ و مجافيٌ مع والده بدون سبب أو داعي، فهو لم يهجر والده لعشرين سنة لأسباب سخيفة، كعلى سبيل المثال ليتكيف مع الحرية التي ترافق بلوغ المرء، و ذرءه عباءة الطفولة و المراهقة، فلا يمكن أن يكون هذا مسبباً و خصوصاً و إن سيرغي كان منذ الصغر قد غرز والده في ذهنه بأنه من ستقع عليه أعباء منصبه و أوراثه، و هو قد مهده لذلك، و أغدق عليه من الدروس و التلقينات في أمور إدارة الأعمال و إنشاء العلاقات الرفيعة، و كان سيرغي مستعداً و متأهباً لليوم الذي سيستلم فيه

منصب والده و تقع عليه مسؤولياته، ليحصّل قدراً من الجاه و الشأن يجعله شخصاً يُهاب و يُخاف و يُعمل له ألف حساب، كل هذا قد حدث و جرى في ذهنه في وقتاً ما في تلك السنين، لكن كان ذلك في عمر كان فيه سيرغي من السذاجة و الجهل اللذين سمحا له بتصديق إن الخطط تجري كما ترسم بدون أنعواج أو عوائق تحيدها عن مجراها، و في الحقيقة رجعت تلك الذكريات فجأة أمام عينيه، و أخذته إلى وقتٍ كان فيه قد وطئ لتوه عتبات مرحلة المراهقة، حيث الطيش و العناد و المشاعر المتأججة تحكم كل ما يدور في عقل المرء و توجهه إلى حيث تريد.

أنفلتت الكلمات من فم سيرغي بدون مكابح لتوْقِفها، و حتى و إن كانت هناك مكابح، فهي لن تستطيع أن تفعل شيئً أمام هذه المشاعر المختزنة و المكبوتة التي أنفجرت من أحشاء سيرغي، بعد أن رأت أن الحبس قد طال، و إن الوقت قد حان لتنصيب الصورة على وضعها الكامل، فيما كان ميتيا قد أرجع رأسه للخلف في دهشة للكلمات التي لم تكن متوقعة، و في تعجب لهذا الإنطلاق الذي لا يوقف، و كأنه جلمود قد دحرج من علٍ.

« لم أرد أن ينتهي الحال بيننا على هذه الشاكلة، و لم أرد أن تنطلق بي مشاعري تجاهه نحو الكراهية التي لا عودة منها، صدقني عندما أقول لك بأني لست بهذه القسوة في المشاعر، و الجمود في العواطف، و على مر السنين لطالما كان هناك بريق ضئيل يلمع عند الأفق ينبئني بأن الوقت لم يفت بعد لتنصيب علاقتنا على مسارٍ جيد، و أن الوقت لم ينقضي على أن أرجع عن عنادي و أن أتخلى قليلاً عن كبريائي و عزتي و أعود لأحضان والدي و لو لثانية واحدة، فقط لأعلمه عن إنتهاء الحقد و الكراهية بيننا، كل ذلك قد لمحته على أطراف نظري

على مدى عشرين سنة قد مضت، لكن . . . ، لكن الآن و قد فات الأوان، لا كلام يجدي، و لا أعذار تنفع، و لا توسل أو ترجي قد يعيد الأمور لنصابها، المعجزة وحدها كفيلة بفعل ذلك، و لم أكن يوماً من النوع الذي يؤمن بالمعجزات، بل أنا لا أؤمن حتى بأبسط الأمور، فما البال بما هو أعظم، و ما لا يصدق »».

عصر سيرغي ركبتيه مظهراً حسرته و ندمه على تلك السنوات الطوال الضائعة، و أخذت الدموع تنسكب من جرف عينيه، مبللة بنطاله، فيما كان ميتيا قد أخذ يربت على ظهره المحدودب بلطف لا يبدو بأن سيرغي كان بإمكانه حتى الشعور بالأنامل التي أخذت تنساب على ظهره و تمسده.

أصطلب بدن سيرغي بعد أن مسح دموعه و جففها، و بعينين حمراوتين نظر إلى ميتيا بصورة مكسورة يشوبها الخجل من هذا البكاء الذي بدا له محرجاً بأن يفعله أمام شخصٍ غريب عنه، و كان في دواخله المحطمة التي تعلن بصراحة و بصدح مدوي « أنظر إلى حالك، ففي أول مرة نتكلم فيها مع أحد بهذه الإنطلاقة، و ها أنت تبكي كالطفل الذي لم يعطه أحدٌ ما بالاً في أي يوم من الأيام، أستجمع حالك يا رجل و كف عن البكاء كالمدلل »، رفع سيرغي رأسه فجأة، و أخذ يهذرم تحت أنفاسه بعض الكلمات المشجعة التي وجهها لنفسه، و كان ميتيا طوال هذا الوقت جالساً بجنبه لا ينطق و لا يبدي أي لمحة قد تعلم عن كونه منزعج أو متضايق مما يحدث أمامه، بل هو على العكس، كان ينظر إلى سيرغي غير مزيحاً عينيه عنه، و على وجهه علامات التفهم و الترقب و التفحص لكل حركة كان سيرغي يقوم بها، و ما أن هدأت الأمور بعد مرور بضع دقائق، و أن أستجمع سيرغي زمام أمره، و عاد كما كان

سابقاً، وجلاً و متوتراً، نطق ميتيا بعد أن رأى بأن الفرصة قد سنحت ليكمل ما قد أتى لقوله من الأساس.

« إسمع يا سيرغي، أعلمُ بأني غريب عليك، و لا أقربك بأي صلة، و أنت لم تعرف بوجود شخص اسمه ميتيا غورشن لحد يوم أمس، لكني علمت بك من والدك، و على الرغم، كما قد قلت بالأمس، بأنه لم يتحدث كثيراً عما جرى بينكما، و لم يلمح لما هو سبب القطاع بينكما، إلا أنه كلما مر بنا الحديث في إحدى أحاديثنا الجانبية التي لا تمت بالعمل بصلة و تحديداً نحو مواضيع العائلة و الأقارب، و بالأخص عندما أذكر ابنتي، و آأخذ بمدحها و الإثناء عليها عن كونها ابنة لطيفة، لا أجد شائبة فيها، أرى تلك الإنحناءة التي تثقل رأس السيد بيتروفيتش، و تلك النظرات المكسورة، التي تعبر بأفصح الكلمات عن معرفته لما أتحدث عنه، و عن إختباره لنفس المشاعر التي أفصحها و أعلنها تجاه ابنتي، قد لا تصدقني، و لن ألومك إن فعلت ذلك، لكن والدك قد أحبك، و لا أظن أن محبته لك قد توقفت للحظة واحدة منذ أن أتيت أنت لهذا العالم لحين غادره هو، و أقول كل هذا بناءاً على تجربتي كأب، مدركاً كم نحن نعاني و نشقى، نحن الآباء، و كم نُظلم و نتجاهل من قبل ابناءنا، و أنا أدرك بأنك لا بد و أن تكون شاعرٌ في أعماق قلبك بذلك، و لهذا أنت الآن تتألم و تتعذب، على فراق والدك قبل أن تُعلمه و تجعله موتعي لكونك لم تمحه من فكرك يوماً ما، و بأنك لحتى هذه اللحظة نادم على ما قد حدث بينكما من عتاب و خلاف، و لا بد و أنك لا تجد أي مخرج لهذه العواطف و المشاعر الجياشة سوى بالبكاء و الشعور بالحسرة و الضياع ».

وضع ميتيا يده بحماسة متأثراً بالمشاعر التي أستجلبها في محاولته لتطبيب سيرغي، فيما كان سيرغي من الصعب رؤية ما هي ملامح وجهه عليه من شا كل، و لا تستطيع تخريص أي شيئ منه سوى من قبضتي يديه المتشنجتين على ركبتيه اللتان تهرصاهما.

أكمل ميتيا كلامه متخذاً نفس النبرة التي أنتهى عليها من حماسة و حرارة في نطق الكلمات.

« عند الغد يا سيرغي، عند الغد، سيوارى جثمانه، و لن يحضر تلك المراسيم سوى قلة، فمن قد يحضرها و هو قد أنهى حياته بتلك الصورة البائسة و الشائكة؟، يا للعار من أن تعيش حياتك في بلوة و لا تجد أحد متواجد بقربك ليعينك، و أن تموت و لا أحد ينظر إليك من أعلى قبرك ليودعك، فما رأيك يا سيرغي، أتعدني بأن تسافر معي هذه الظهيرة لكي نحضر مراسم الدفن غداً، و بأن تنهي خلافكما الشائك ذاك و أن تودع والدك على صورة حسنة تليق بك و به؟ ».

كانت التجاعيد قد غزت جبين ميتيا في تقطيب يعبر عن جدية الموقف و ضرورة تلبية نداءه و مطلبه، شفتاه مطبقتان بإزمام مترجي، فكانت المفاجأة بأن بدن سيرغي بدأ بالإهتزاز و الإرتجاج بصورة لا تدع أي شك بأن ذلك ناتج من محاولة لكبت إنفجار في الضحك، و ما هي إلا ثوان حتى تفتق سيرغي ضاحكاً بأقصى ما يملك من قهقهات، و عيناه تذران الدموع، و بطنه يرتجف و يختض بشكل غير طبيعي يشابه الهلام، و أستمرت الضحكات و القهقهات لمدة بدت كالدهور، فقام ميتيا من مقعده غاضباً غير مصدقاً لما يحدث أمامه، فهذه ليست إنفلاتة من سيرغي أثر نكبة لا يستطيع أن يتعامل معها، كما حدث له سابقاً، بل

هو تعبير واضح بأن ما قد قاله ميتيا كان حقاً مثيرٌ للضحك بالنسبة لسيرغي، فوقف ميتيا أمام سيرغي بحزم باطن و بحنق بائن، و لم يعد بإمكانه تمالك أعصابه، فأخذ يصرخ في وجه سيرغي معاتباً إياه على ردة الفعل الشائنة هذه التي يقوم بها.

« لماذا كل هذا الضحك؟، أهناك شيئاً ما في كلامي تراه بهذه الدرجة من التفاهة أو السخافة؟، هل أِظهار التعاطف و الشفقة تجاهك لهو أمر شاق عليك لدرجة تجعلك تتنحى عن مجابهته بردة فعل طبيعية؟، أخبرني، ما الخطأ أو الشائبة في ما قد قلته؟ ».

أختض بدن سيرغي، و أخذ يحتضن ذراعيه في حسرة و لهفة، و أسنانه تصر على بعضها البعض، و تحولت الإبتسامة المجنونة إلى غضبٍ صارمٍ، و نهض من مكانه في الحالِ، جاراً ميتيا من ذراعه و موجهاً إياه ناحية باب الغرفة، حيث فتحه، و ألقى بميتيا خارجاً، و لم يدرك ميتيا كل هذه الأحداث التي جرت بسرعة فائقة منعت قدرته عن التصرف، فما كان أمامه سوى خشبة الباب التي أوصدت على وجهه بقوة صارخة، فوقف مدهوشاً، و علامات وجهه تتغير و تتماوج مع أندفاع أفكار ذهنه، و هو الذي بدوره حاول نصب الأمور بطريقة يستطيع التعامل معها، و ما أن أستجمع لمام أمره، و عاد إليه عقله بكل رجاحته، حتى أخذ يطرق على الباب، تماماً كما كان سابقاً، و كأن شيئاً لم يكن.

سمع ما بين الطرقات صوت نحيب مخنوق، و بدا و كأن الصوت صادر من منخفضٍ حيث الأرضية، فلا بد و أن سيرغي قد أنهار على بدنه، و ألقى به على الأرضية الباردة، يبكي و ينوح، و لا معزز و لا مواسي معه.

هدأت الرياح، و توقف الثلج عن الإنهمار، فطغى جوٌ من الهدوء و الخواء على ردهات المبنى، و الذي ظل على حاله من خلو من الناس، فكلٍ مختبئ في غرفته، إتقاءاً من البرد، ما عدا ميتيا الذي ظل مكانه و لم يبرحه، مستنداً على خشبة الباب، يصغي لتهدرج حبال سيرغي الصوتية التي كانت تتعارك و تتقاتل في من تصدر أصواتها أولاً، فيكون الناتج هو معزوفة ناشزة، لا تستطيع أن تحكم عليها بأنها صادرة من إنسان.

و فيما كان ميتيا يفكر و يعمل ذهنه في ما يجري في دواخل سيرغي، و ما الذي دعاه لهذا التغير الطارئ في ردة فعله، سمع من خلف الباب صوت حركات تنبئ بنهوض سيرغي من مكانه، و تلاها صوت خطوات مترددة و مترنحة، تبتعد و من ثم تقترب، و كأنه حيوان جريح لا يدري أين الطريق، حتى توقفت الأصوات فجأة، و بعد ثواني بدت من أهميتها كأنها دقائق، أستأنفت الخطوات في عمل أصواتها متجهة بإطراد نحو الباب، لتُسْمَع صوت خرخشة القفل و هو يفتح، و من ثم الباب، حيث تنحى ميتيا عن الطريق، مخمناً بأن سيرغي لم يدرك بأنه ما زال هنا جالساً عند باب غرفته، و كم سيكون متفاجئاً برؤيته هنا، لكن خالف سيرغي توقعاته، فهو في الحقيقة لم يفتح الباب إلا لكونه مدركاً لتواجد ميتيا في الخارج إزاء باب شقته، و لم يفتحه هو إلا ليعزمه للدخول.

(الفصل الرابع)

من الصعب تفكيك و تجزئة ذكرياتنا القديمة و إعادة تكوينها و تجميعها بشكل يسهل بلعه و إجتراعه في وقتنا الحالي الذي نكون فيه متخذين دور المحللين، خصوصاً ذكريات الطفولة، حيث نكون في تلك الفترة من السذاجة و الجهالة اللتين لا تسمحان لنا بأن نستوعب ما قد حدث أمامنا كما يجب أن يفهم، و عوضاً عن ذلك نشوهه و نبعجه على شاكلة لا تتناسب إلا مع عقولنا الصغيرة و الضيقة، فتكون الذكريات حينئذ كشفرة معقدة من صنعنا نحن، لا نعرف رمزيتها و حلها، و أحياناً تكون الذكريات مبالغة في أهميتها على الرغم من كونها تافهة، و بالعكس تكون بعض الذكريات ضئيلة في ذاكرتنا و لكنها كبيرة في أهميتها بعد أن نتفحصها على ما هي عليه في حقيقتها، فعيون الأطفال مغطاة بغشاوة البراءة، كما تكون عيون البغضاء مغطاة بغشاوة الكراهية.

لم يفكر سيرغي قط عندما كان طفلٌ بأنه قد يبارح منزل والده في أي يوم من الأيام مهما كانت الظروف، و الظروف التي أستطاع تخيلها طبعاً لم تكن بتلك الإبداع في تصويراتها عطفاً على سنه الصغير، فهو إن غضب على والده في أمرٍ ما، لا يلبث سوى بضع ساعات قبل أن تعود الأمور لمجراها كما كانت، و كأن شيئاً لم يحدث، و إن كان العكس، بأن يغضب والده عليه جراء مشاكسة قد قام بها، فأن والده لا يتوانى عن إظهار أن مقته هو موجه للفعل نفسه الذي قام به سيرغي و ليس له شخصياً، فمن السهل إبعاد الفعل عن الشخص، و حل المشكلة حينئذ بعقلانية هادئة.

و في منزل السيد بيتروفيتش، لم تكن الأهمية القصوى لضمان ثبات العلاقة القائمة بين سيرغي و والده مبنية على المحبة و التحاور، أكثر من أن تكون على التفاهم و التعايش، و إتاحة المجال للآخر للتعبير عن نفسه بحرية لا تنغص معيشة الآخر، و قد أستمر هذا الوضع حتى تخطى سيرغي عتبة بدايات المراهقة، و دخل سن الرابعة عشر من عمره، و هو قد إذخر من المعرفة و الخبرة في شؤون التعامل مع عملاء و شركاء والده بما فيه الكفاية تمكّن على أثرها من أن يعتبر كشخص من أترابهم، و حتى في مدرسته الفاخرة، التي تعتز بتلامذتها الذين يعلنون صراحةً نواياهم الطموحة و مقاصدهم الهامة ساعة إنضمامهم لمنضومتها، كان سيرغي هو الشخص الأول الذي تستذكره الأذهان عند التحدث عن من يكون الشخص الأمثل ليكون واجهة المدرسة و خير ممثل لها، فالتلامذة يحترمونه و يقدرون معرفته و ذكاءه، و الأساتذة يحبونه و يجلون همته، و سيرغي على الطرف الآخر كان لا يقلقه شيئ، و لا يخيفه حدث، رافعٌ رأسه و مختال في مشيته، لا تمحي علامات الصلف و التكبر عن وجهه، عائشٌ في دعة و رخاء، و في تقديس و هناء، و مستقبله كان يبرق من بعيد، لا يستعجله في أن يصل إليه، لكن البريق يعمي، و البريق يذهل و يمحي العلامات و الإشارات التي تنبهنا للعثرات التي أمام أقدامنا.

و حدث في يوماً من الأيام التي يكون فيها الجو منتعشاً بنسائم الصيف الدافئة، حيث يكون سيرغي في أفضل مزاجاته، أن أستقبله أحد خدم المنزل بوجه جاد، يطلب منه القدوم معه إلى مكتب والده في الطابق الثاني، و لم يكن الخدم يفرضون شرط مرافقتهم إياه في حال إستدعاءه إلا في حال كان الموضوع طارئ و عاجل، فأسرع سيرغي متبعاً الخادم و معتلياً

من خلفه درجات السلالم، و لا زال لباس مدرسته عليه، و حتى مجموعة كتبه التي أحتضنها بذراعيه لم يوضعها جانباً.

دخل الخادم أولاً و أزاح نفسه جانباً، سانحاً المجال لسيرغي لكي يدخل و يواجه والده الذي نصب مكتبه مباشرة قبال الباب، و تفاجئ سيرغي بأن والده لم يكن لوحده، و هو الذي جلس في مكانه المعتاد خلف مكتبه، و لكن من على الجانب القريب لسيرغي من المكتب جلست امرأة شابة، تبدو علامات الطفولة على ملامحها البشوشة و المرحابة، لم يستطع سيرغي بأن يخمن عمرها إلا بأن تكون في أوائل العشرينات من عمرها.

أمر السيد بيتروفيتش سيرغي بالجلوس على الكرسي المتاح الآخر، حيث كان كلى من سيرغي و المرأة يتفحصان بعضهما البعض، هي بنظرات ترغب بالتعرف و التعاضد، و هو بنظرات مستغربة و حائرة، ألمح السيد بيتروفيتش إلى سيرغي بأن يعرف بنفسه للمرأة، و ما أن فعل كما طلب منه، حتى أخذت هي الأخرى بالقيام بالمثل، و لم يكن ذلك كافياً لسيرغي ليدرك ما الغاية من هذا التعارف، و من تكون هي إذا أستثنينا معرفته لإسمها و من أي مدينة هي قادمة، فكانت الكلمات المترددة و المرتبكة و الغير معتاد بأن تسمع من شخص كالسيد بيتروفيتش هي الفاصل في تحديد هوية هذه المرأة، فما هي إلا زوجة والد سيرغي الجديدة.

دخل سيرغي مكتب والده في مهمة البحث عنه، حيث قد أصبح هذا نمط قد كره سيرغي أن يعتاده، فمنذ أن تزوج والده بتلك المرأة حتى أصبح كالمراهق العاشق الذي لا يركد في مكانه، فهو لا يجلس معها في مكان و تغادره هي لسبب ما، حتى يأخذ بإتبعاها أينما أرتحلت و حلت متغنياً بكلمات الحب و الرومانسية التي كانت آذان سيرغي و جميع من يقطن

هذا المنزل معهم قد حفظتها، و لم تكن زوجة والده تبادر والده بالمثل في تصرفات سن المراهقة هذه، حيث كانت هي أرزن و أعقل منه، و تدرك كم هو مخجل و محرج بأن يشهد الناس هذه الأفعال و الأقوال التي يجب أن تقال و تعمل في الخلاء، و كانت هي نفسها في الحقيقة تخجل حتى من أدنى تلميح للعاطفة و الحب تتلقاه أمام أي أحد، و لا سيما عندما يحدث كل هذا أمام سيرغي، الذي كانت دائماً حذرة و متوجسة في تعاملها معه، فهي تدرك كم هو مهم لكي يستمر الهدوء و الراحة في أجواء المنزل بأن تكون على علاقة متفاهمة و محترمة مع ابن زوجها، فمتى صادفته في غرفة ما أو ممر حتى تحاول بكل جهدها أن تخاطبه بطريقة تعكس تلك الرغبة في تعميق التواطد و الأخاء بينهما، و لم تحاول يوماً إغصاب و إجبار محاولاتها هذه على سيرغي، فإن تجاهلها كما يفعل في معظم المرات، فهي لا تلح عليه بأن يرد عليها و لا تصر بأن يبدي لها الإجلال و الإحترام لكونها زوجة والده، فكل ما تفعله هو إماطة شفتيها و أنزال رأسها حتى يلامس ذقنها جيدها، في قنوطٍ و وجوم.

كان كره سيرغي لزوجة والده في تزايد و تفاقم، فكلما رآها بجنب والده على مائدة الطعام، تمد إليه الأدوات و الصوان، و تغرف له من الطعام و تسكب له من الشراب ما يطيب له، كلما تقلصت شهيته و أقتطع من وقت جلوسه على نفس المائدة التي تكون هي جالسة عليها، و لم تغب ردود الفعل هذه عن أعين زوجة السيد بيتروفيتش، فهي كما قلنا دائمة التوجس و القلق إزاء كل شيئ يتعلق بعلاقتها مع سيرغي، و كانت قد خمنت بأن كرهه و بغضه لها قد وصل لحد الإنفجار و لا يجب أن تدعه كما هو بدون تدخل منها، فلم تجد حلاً سوى أن تخاطب السيد بيتروفيتش مباشرة و صراحة بالحال التي هي عليها مع ابنه، و أن

تطلب منه حلاً لهذه المعضلة بحكم كونه والده، أي بمعنى أنه أعلم و أفهم له و لتصرفاته و أطباعه منها هي التي لم تحل عليهم إلا منذ أشهر معدودة، و لم تدرك زوجة السيد بيتروفيتش كم سيسبب هذا الطلب بالتدخل بالمشاكل و المتاعب و سوء الفهم.

لم تهدء الأعصاب و لم ترتخي العضلات من إنقباضاتها إلا بشق الأنفس، و بعد مجهود طويل من عدة أطراف لحل سوء التفاهم الذي شاع بين سيرغي و والده، فالسيد بيتروفيتش لم يفهم كلام زوجته و شكواها عن علاقتها بسيرغي إلا بصورة واحدة، ألا و هي الطريقة التي هو ينظر بها إلى زوجته، أي العاطفية و الرومانسية، فهو قد هجم على سيرغي من حيث لا يعلم و بدون إنذار، زاعقاً في وجهه و قابضاً على خناق قميصه، مشيناً سوء تصرفه و خبث أفعاله، و مهدداً إياه بالطرد و التشريد في حال إن أستمر على أفعاله الشنيعة هذه، و لم تسنح الفرصة لسيرغي بأن يقول أي شيئ، حيث كان الحكم عليه قد أصدر مسبقاً، و لا مغير لهذا الحكم إلا من طرف أعلى، ألا و هي زوجة السيد بيتروفيتش، التي أقلعت من مكانها و أركضت رجليها حالما سمعت صوت الصراخ الغاضب الذي ميز صوت السيد بيتروفيتش، و أقنعته ببراءة سيرغي، و عن سوء التفاهم الذي قد حدث بين الأطراف كلها.

كان جو المنزل قد أصبحت ميزته الهدوء المتعكر و المتضبب، صموت واجم، و أنشقاق لا سبيل لترقيعه، حيث كان سيرغي قد أختلى بجهة من المنزل، و السيد بيتروفيتش و زوجته قد سكنا الجهة الأخرى منه، لا يلتقي أي منهم بالآخر، و لا يجتمعون على طاولة الطعام كما كانوا يفعلون سابقاً، و لا يصادف أحداً منهم الآخر في ممرات المنزل، و كل هذا كان متعمداً من كل الأطراف، حيث أنهم بشكل غير معلن قد لاحظوا نمط و أوقات

حركات الآخر في أرجاء المنزل، و وقتوا نظامهم ليملئ فراغات نمط الآخر، فترى هذا أو ذاك ما أن يسمع صوت فتح باب من الطرف الآخر حتى يهم بدخول غرفة أخرى يبتعد بها بمقدار فسحة خاوية تقضي على أي فرصة للإلتقاء.

أستمر هذا الحال لعدة شهور أخرى، بين خروج و دخول لا يعلن، و مضي للأحداث لا يناقش، حتى دخل سيرغي باب المنزل في أحد الأيام، راجعاً من مدرسته، و تفاجئ ببدن والده مسجى عند عتبة السلالم أمامه، لا يتحرك و لو بومضة واحدة، فهرع سيرغي ناحيته، و قام بقلبه على ظهره، لينظر إلى وجهه إن كانت علامات الموت قد رسمت خطوطها الحادة عليه، و من ثم ليجيس نبضه و يستمع لأنفاسه، و ما أن تأكد من كونه لا يزال على قيد الحياة، حتى هرع مباشرة ليبحث عن أي أحداً كان، و لم يعلم ما هي المناسبة التي كانت تجري في المنزل في هذا اليوم، و لكنه لم يجد أيٍ من الخدم، بعد أن بحث عنهم في الأماكن التي يلقاهم فيها عادة، فرجع إلى بدن والده الذي كان يتسابق مع الزمن بصفقة رهان على حياته، فأخذ سيرغي يفرك يديه في ذعر و يعض شفتيه في حيرة لما يفعل، و لم يكن مدركاً لنفسه حين أخذ يصرخ بأعلى ما عنده طالباً النجدة، و ما هي لحظات حتى سُمِعت خطوات زوجة والده المسرعة من الطابق العلوي، تلبي النداء بإجابتها المسائلة « ما الذي يجري؟، ماذا هناك؟ ».

فتح السيد بيتروفيتش عينيه على منظر لم يره منذ فترة طويلة بدت له ذكرياتها كأحلام صبي قد أبتدعها ذهنه، فها هي زوجته التي يحبها بكل ما يملك من مشاعر و عواطف، جالسة على كرسي بجنب سريره، و من خلفها كان سيرغي واقفاً يحدجه بنظرات قلقة و مرتبكة، و

كأنه يترقب حكمه بحال الوضع الذي هم عليه الآن، فهز السيد بيتروفيتش رأسه بحركة خفيفة لا تكاد تبان معلناً عن رضاه بعودة الأوضاع بينهم كما كانت سابقاً، و لم تفت هذه اللمحة من أمام مرأى زوجته، التي أمسكت بيده مباشرة و أخذت تضغط عليها بيدها و من ثم تقبلها بنشوة، و دموعها النادر رؤيتها قد أنهمرت على مصالحة العهد هذه التي كانا يقومان بها.

عادت الأمور لمجاريها، و إن لم تكن بتلك الحسن منذ البدأ، إلا أنها كانت خطوة إلى الطريق الصحيح، ففي ما بين تجمعهم على مائدة الطعام ثلاث مرات في اليوم، و إصطداماتهم التي تقع بالصدفة في ممرات و ردهات المنزل، كانت العلاقة بين سيرغي و زوجة والده في تطور و نشوء بطيئ، من عدم الإكتراث الذي كان سيرغي يبديه إلى إهتمام عبثي لا يعرف غايته سوى بأن هناك كيان في هذا المنزل مخالف لطبيعته و لطبيعة والده، و من الجانب الآخر كانت أطباع و عادات زوجة السيد بيتروفيتش تجاه سيرغي قد تغيرت هي الأخرى، فكانت أطباعها و تصرفاتها سابقاً مشوبة بحس الإرتباك و القلق و بلمحات متوارية من الخوف، و لكنها مع مرور الوقت قد تغيرت أطباعها لتكون بشاكلة تظهر شخصيتها الحقيقية و تبرزها، فهي لم تعد تقابله بوجه عالق على مختلف المشاعر كما كانت تفعل سابقاً، بل أخذت ملامحها تتهيئ و تتشكل على إبتسامة حنونة و مصداقة كلما وجهت نظرتها تجاه سيرغي، و لم يكن سيرغي يعرف كيف يتعامل مع هذا التطور الذي طرئ على علاقتهما، فهو من ناحية لم يمانع أن تسير الأمور بينهما على هذا الوضع المطمئن و الهادئ، و لكن كان هناك شيئاً ما في باطنه حيث تربض مشاعره الدفينة التي لا يعلنها لأحد قد أخذ بالتطور و التشكل و أخذ مكانه و حيزه في قلب سيرغي، و كان هذا الشيئ المجهول قد أصبح من الكبر في حجمه بأن

كان من الصعب تجاهله كلما أعلن نفسه أمام سيرغي، و ألح عليه بأن يعترف به و يعلن هويته بصراحة.

وقفت زوجة السيد بيتروفيتش عند باب غرفة سيرغي، تنظر إلى ظهره الذي أنحنى على القمطر، حيث كان سيرغي منكباً على دراسته بكل إجتهاد كما كان دائماً، و لطالما أحس سيرغي بتواجد زوجة والده على عتبة بابه كلما مرت من أمام غرفته، و إن لم تحدث أي صوت لتعلن به وجودها، و لم يحاول يوماً أن يضبطها و هي على هذه الحالة المترصدة، فهو يعلم بأنها ستمضي عنه بنفس السرعة التي أتت فيها، فأنتظر سيرغي مضيها عنه، و حاول الإنشغال بدراسته، و إن كان ذلك صعباً و شاقاً عليه، و مرت الدقائق و هو لا يزال يحس بوقوفها خلفه عند بابه، و أرتاب سيرغي من هذا الأمر الذي لم يعتاده، فألتفت للخلف بطريقة مصطنعة في عفويتها ليتظاهر بعدم علمه عن تواجدها خلفه طيلة هذا الوقت، و تفاجئ سيرغي بخلو عتبة بابه من الزوار، و أخذ ذلك الشيئ المجهول ينبض بصخب في قلبه حتى طغى على وجدانه، و لم يعد يسمع أي صوت يتردد في دواخله سوى صوتها، و لم يعد يتراءى أي شيئ أمام مخيلته سوى ظلها، و خاطب سيرغي نفسه إثر هذه الصحوة.

« أحبك يا زوجة والدي ».

بدأت طبيعة نظرات سيرغي تجاه زوجة والده تتغير في حدتها، حيث أصبحت أكثر رقة و مليئة بالعاطفة، و دائماً ما كان يتبعها بعينيه كلما مرت من أمامه حتى تغيب عنه، و أخذت كل حركة تقوم بها تتخذ معنى خفي لا يفهمه إلا سيرغي، بإعتقاده هو، كل رمشة عين، و كل إبتسامة متوارية، و كل تلويحة تقوم بها بأناملها، كانت تعنيه بمغزاها، و كان

الأمر الشائب الوحيد الذي يقف عقبة أمام تخيلاته، هو تصرف والده المشين و المخجل معها، الذي عاد كما كان سابقاً، لا يمتنع عن إباحة كل ما يجول بخاطره عنها أمام الجميع، و لا يستحي من ملاعبتها و ملاطفتها أمام أعين سيرغي، و حتى مائدة الطعام لم تسلم من أن تشهد هذه الأفعال، و لم يكن سيرغي يدري إن كان والده يتعمد القيام بكل هذا فقط لإغاظته و حسب، أم أنه حقاً بهذه الهمجية و الفجاجة، و لكنه لم يدرك هذه الخصال فيه سابقاً لكون الظروف لم تتح له الفرصة لإستعراضها، و كما لم تتغير أفعال السيد بيتروفيتش، لم تتغير ردات فعل زوجته أيضاً، فهي لا تنوء عن محاولة منعه و ردعه عن القيام بهذه الأفعال التي تحمر وجنتاها منها، و لم تخنع يوماً أمام هذه التصرفات دون أن تحاول إقناعه بالتوقف عنها، و عن كيف أن هذا لهو أمراً شائن و محرج القيام به أمام الجميع.

و في أحد المرات عندما كانوا يتناولون عشائهم على مائدة الطعام، بدأ السيد بيتروفيتش عاداته هذه، يتلمس زوجته و يخاطبها بالكلام الخاص الذي لا ينطق إلا بين جدران غرفات النوم، و أخذت زوجته تحاول منعه من ذلك، فما كان منه سوى أن يستاء من ردات أفعالها هذه التي بدأ يسأم منها، و أخذ يراها كعلامات كرهها له و عدم رغبتها به، و طلب منها إعطاءه سبباً يمنعها من قبول تقدماته هذه، منبهاً بأن لا أحد هنا معهما في هذه الصالة، سوى سيرغي، و هو لم يكن في نظره سوى فتى صغير، فأحتارت من كيف أن تجيب، و أخذت ترمق سيرغي الذي جلس على الطرف البعيد من الطاولة بنظرات متوجلة و مترددة، فكانت تلك هي إشارة مرمزة قد فسرها سيرغي على أنها إجابة من زوجة والده على مشاعره الدفينة التي أطلق سراحها منذ فترة و جعلها تسكن عينيه، ورأى وجوب تدخله

في الحال، و الإفصاح لوالده عن العلاقة الخفية القائمة بينه و بين زوجة والده، و طبعاً لم تكن هذه العلاقة قائمة إلا في مخيلته و توهماته وحده، فكان العجب و الذهول قد أرتسمت تقاطيعه على وجهي الأثنين، كلى من السيد بيتروفيتش و زوجته، التي بدت أكثر حيرة من زوجها، الذي كان أكثر فطنة منها، و أدرك منذ فترة طويلة عن ما يختلج في ذهن هذا الفتى المختل.

لم تنقضي الأمور بالسرعة التي كان الجميع يتوقعها، فالموقف الذي وضعوا فيه لم يكن من السهل الخروج منه بشكل سليم يضمن عدم تأذي جميع أطرافه، و بينما كان سيرغي يغذ الخطى دائراً حول عقبيه، يدور في غرفته، و يفرك يديه في حسرة و ضياع لا يعرف نهايتهما، كان السيد بيتروفيتش و زوجته قد لجئا إلى غرفتهما في الجناح الآخر من المنزل، و أتخذ السيد بيتروفيتش طرف السرير كمجلس له، خافضاً رأسه ينظر للأرضية المسجاة بسجادة الفرو، و يداه منقبضتان على حافة السرير، و كأنه طفل صغير على عشب ضفة النهر يدلي رجليه في صفيحة ماءه، و كانت زوجته قد أعطته ظهرها، واقفة قبال منضدة التجميل، تتأمل في إنعكاسها الذي أرتسم بشكل مظلم و كالح على المرآة، و مرت الدقائق كما ينفتل الحبل بعد فك عقدته، و في اللحظة التي بدا فيها و كأن الأمور قد بدأت تهدأ و الأنفس قد أصبحت أعمق، نطق السيد بيتروفيتش بصوته الخشن و الصلب موجهاً شتى الأسئلة المتهجمة تجاه زوجته، طالباً منها أن تفصح عن ما كان يجري بينهما في الخلاء و عندما كانت أعينه لا تلحظهما، و لم تكن أجوبة زوجته قاطعة و حاسمة، حيث بدت و كأنها شريكة في الجريمة، و هي بالفعل قد أعتقدت في أعماقها بأنها قد أججت مشاعر سيرغي و أغوته بدون إدراك منها، و إن كانت لا تقصد أي من هذا أن يحدث، إلا إنها الشخص البالغ من بينهما، فما هو إلا طفل في سن

المراهقة، لا يعاتب و لا يلام، و مع إسترسال زوجته في حوارات اللوم هذه التي كانت توجهها لنفسها بدا من الواضح للسيد بيتروفيتش بأن زوجته لم تكن طرفاً في توهمات ابنه الساذج، و إن كل ذلك هو من إصطناعه وحده و حسب.

عادت الأمور لمجراها، و كأن شيئاً لم يحدث، فكلٍ تجاهل و تغاضى عن ما قد حدث، فلم تكن تلك الليلة إلا لمحة واهية من أضغاث أحلام لم يُعرف بعد من مخيلة من قد أنبعثت، و على عكس ما قد نبأت له تلك الليلة من خراب و دمار حادث لا محال بين سيرغي و والده و زوجته، إلا أن الأمور جرت على عكس تيارها، فالحقيقة هي إن علاقتهم قد أصبحت على أفضل حال من الممكن أن تكون عليه، و الطرف الذي ساهم بالقدر الأكبر من الجهد و التغير ليجعل هذا هو الواقع، كان سيرغي لا غيره، فهو قد قلب من وضعه، و غدا أكثر مرحاً و بشاشة، يداعب الخدم بالممازحة، و يتحدى والده في صنعته في التجارة، مما جعل السيد بيتروفيتش فخورٌ و مرتاحٌ من قدرات ولده، و أما عن زوجة والده، فقد أصبح أكثر قرابة منها، و دائماً ما يلتمس نصحها و مشورتها في الأمور التي تعيق طريقه، سواء في دراسته أم في حياته، و لربما الخبر الأجل الذي قد قضى على أي بارقة من أحداث تلك الليلة المشؤومة، هو ما أخبر سيرغي زوجة والده به في أحد الأيام عن علاقة قد نشأت في ما بينه و بين فتاة قد تعرف عليها في إحدى ندوات المدرسة، حيث يخلط حشد من التلامذة من عدة مدارس في مكان واحد، و أعجب سيرغي بتلك الفتاة من أول نظرة، على حد وصفه، و فوجئت زوجة والده بهذا الخبر، و مدت شدقيها مبتسمة و ربتت على كتفه تهنئةً على مرحلة

العبور هذه التي تشهد سيرغي يمر بها، و كانت هذه الفرحة صادرة من نوابع طاهرة و مصداقة، لا فرق بينها و بين فرحة أم حقيقية.

ألتقى الطرفان مع بعضهما البعض، زوجة السيد بيتروفيتش و الفتاة التي أغرم سيرغي بها، و أنتهت الأمور على وفاق تام، لا عتاب أو إنتقاص يمكن أن يصدر من زوجة السيد بيتروفيتش بعد أن لمحت كم أن تلك الفتاة تملك من الألفة و سعة النفس و المحبة في أفعالها و كلماتها، و أرتاحت منها في الحال، و بعد هذا اللقاء، و رحيل الفتاة برفقة سيرغي ليصطحبها إلى إحدى نزهاتهم اليومية، فكرت زوجة السيد بيتروفيتش في خصال تلك الفتاة و ملامحها، و نغزها قلبها في خشية من أمر لم تستوعبه بعد، و أخذت تمسد صدرها في محاولة منها لتطييب هذا الألم الذي أزعجها و الذي لم ترد أي أثراً باقي منه، و خصوصاً و أنه لم يكن من المفترض أن تشعر به، لكونها لم ترى لا داعي أو مسبب له.

كان دخول السيد بيتروفيتش للمنزل بعد لحظات من خروج ذانكم الأثنين مصادفة ذات فائدة، حيث أخذ يشير لباب المدخل، و هو يمدح تلك الفتاة التي ألتقى بها منذ وهلة، و كان إغداقه عليها كل تلك المدائح وقع مشابه للطريقة التي يقوم بها مع زوجته، مما جعله يدرك في لحظة إلهام مفاجئة عن كون تلك الفتاة تشابه زوجته كثيراً، سواء في مظهرها الخارجي حيث حركاتها و لمحاتها، إلى طريقة تفكيرها و كلامها، حيث نطقها للكلمات و أختيارها للألفاظ يشابهها في كل شيئ، فأدركت زوجة السيد بيتروفيتش سبب تلك النغزات في صدرها، و أدركت سبب إختيار سيرغي لتلك الفتاة بالذات من بد كل الفتيات اللاتي رأته يلتقي بهن في الحفلات و التجمعات التي يقيمونها أو يستضافون فيها.

لم يكن سيرغي زائحاً عينيه عن صديقته الجديدة العهد، و دائماً ما تراه هي يسرح في تقاطيعها و ملامحها، و على وجهه تلك التعابير التي تعلم الناظر بقدر المحبة و الوله الذي يكنه و يختزنه لها، و كم كانت هي فرحة بهذه المعزة و التقدير الذي قد بدأت تحضاه منه، و هذا ما جعلها دائمة الملاصقة له و كثيرة الإلتقاء معه، لا ترغب بمفارقته أبداً، هذا لو كان أمر ذلك راجعاً لها، و لكن للأقدار مشاغل و خطط أخرى لا تحتسب لما نريد، فكان من سوء حظ تلك الفتاة أن كان أبواها قد قررا الإرتحال عن هذه المدينة، و طبعاً لكونها ما زالت في إعتداد الأطفال الغير البالغين، فهي كانت ضمن حسبانهم في هجرتهم هذه.

لم تنضب دموعها و لم تجف من على خديها، و هي تحضن سيرغي و تقبله بدون خجل أو حشيمة، و لم يمانع أبواها ذلك، لعلمهم مقدار المعزة و الحب الذي تكنه ابنتهم لسيرغي، و كانت كلماتها المودعة هي بقولها أن الوقت مدراك، و لا بد أن يأتي اليوم الذي سيلتقيا فيه مرة أخرى، و من همِّها من الآن و صاعداً أن تُسخِّر كل قدراتها لتعجيل حدوث ذلك، و فيما كانت مشاعرها ملتهبة و متأججة، كان سيرغي متخدر الحواس، و ميت المشاعر، لا يظهر أياً منها، و لا يبادل صديقته الراحلة كلماتها الحارة، و كل ما كان يسمع منه هو بسبسات و هذرمات لا تفهم إلا كأصوات يملئ بها فراغ الأجوبة المتوقعة، فلوح لها من على منصة محطة القطار، و في الحقيقة هو لم يلحظ كم كانت صورتها تبتعد و تصغر مع تحرك عجلات القطار، لكون صورتها لم تكن حاضرة من الأساس في مخيلته!.

لم يلحظ أحدٌ أي أثر للحزن أو الكمود قد يكون بائنٌ على مظاهر سيرغي، فهو أستمر على عهده و لم يقف للحظة ليعبر عن أسفه و يبدي عن شكواه لذلك الفراق الأليم، و بل بدا

و كأن صديقته لم ترحل عنه قط، عدا أن الشخص التي أخذ يوجه مشاعره و جل إهتمامه تجاهها كانت أخرى، ألا و هي زوجة والده.

لم تفت مظاهرها العين و لم تمر أصواتها مرور الكرام من أمام الأسمع، كانت تلك هي تقدمات سيرغي الجريئة على حرمة زوجة والده، فهو قد كشف الغطاء كاملاً، و لم يرى أية خسارة قد تجترئ بحقه إن هو أعلن ما يجول بخاطره صراحة، و كما كان تغيره سريعاً، كانت ردة فعل والده بالسرعة نفسها، و لم يتوانى، و لم يشفق قلبه، بأن يطرد سيرغي من منزله حال وصلت أفعاله حداً تجاوز فيها كل حدود الإحترام و التبجيل المتوقع منه أن يبديه تجاهه و زوجته.

أنتقل سيرغي للعيش في حرم المدرسة التي لم يتوقع يوماً بأن يحل ضيفاً فيه، و خصوصاً في مقتبل العمر هذا، فكانت تلك توقعات مخزنة لوقت دراسته الجامعية في المستقبل القريب، و في الحقيقة هو لم يمانع هذا الإنتقال الذي أجبر عليه، على الأقل ليس بعد أن فك أحزمة حقائبه، و نفض غطاء فراشه لأسابيع قليلة، عندها بدأ يعد هذا المكان منزله الجديد الذي حاول بمشقة أن يجعل من غرفته مشابهة لغرفته الخاصة في منزل والده، لكن شريكه في الغرفة كان عائقٌ لم يرى مماثلٍ له عندما كان ساكنٌ في منزل والده، و هذا الشريكُ له قصته مع سيرغي، و تحكى في فصولها الخاصة.

(الفصل الخامس)

بالنسبة لسيرغي، لم تكن المساحة التي يحتلها و يقطن فيها بتلك الدرجة في الأهمية، بقدر حريته و خصوصيته في التحكم بما يجري فيها، و كيفية تنظيمها و توزيع مقتنياتها، و لذلك كان لإنتقاله للعيش في الحرم المدرسي صعوبة ممتحنة لا يمكن أن يتخطاها و يتجاهلها كيفما أستطاع، فهو بموافقته على الإنتقال للحرم السكني، قد باع جزءاً من حريته، و رضى بأغلالٍ ثقيلة تقيده، و إن كان الشعور بها صعب لمعظم الناس، لكنها بالنسبة لذوي الأحاسيس المرهفة أحبلة شوكية مربوطة بإحكام على أرسغتهم، و في الحقيقة لم تكن القواعد و القوانين الصارمة التي تفرضها إدارة المدرسة هي ما أزعجت سيرغي بقدر من كان قد قرر القدر أن يجعله شريكاً له في غرفته الجديدة.

لم تكن العجرفة و الخيلاء خصلتين يمتاز بهما سيرغي، و إن كان بعضٌ من مواصفاتهما تنطبق مع تصرفاته و أطباعه، فهو في أعماقه شخص حذر و متوجس، و لا يسمح لنفسه بإعلان خواطره صراحةً إلا بعد تحقيق و تمحيص مجهد لما يمكن أن تكون عليه مستتبعاتها، فهو من أجل ذلك لا بد عليه من أن يتربص مطولاً بهدفه إن أراد أن يصارحه بما يجول في خواطره، و بأن يتأكد بكون ما يشعره و ما يفكره مكتمل الحلقات، و مسدود الفراغات، لكي يمنع إمكانية أن يؤتى من طرف أو نقطة لم يناقشها مطولاً مع نفسه، و لكن . . . ، الواقع و شربكاته المعقدة لا يحفل بالتخطيطات، فهذا، في حال لو إسترجعنا ذاكرتنا قليلاً، هو بالضبط ما قد حدث لسيرغي مع زوجة والده.

لم تشكل أشعة الشمس الحيوية بلونها الدموي أي تضارب في حالة الهدوء البارد الذي خيم على جو غرفة حرم المدرسة التي أتخذها سيرغي مقاماً له، و بل هي على العكس، أيضحت و أشارت علانية لما أرتسم على اليافطة المجازية التي تبين حال الغرفة، و كأنها تسخر بشكل فاضح بحجم الكبرياء و التعنت الذي يتخذه المرء غطاءاً لهويته و مشاعره، لا يستغني عنهما و إلا أحسَ بزمهرير قسوة العلاقات التي تقوم بين البشر، فلا يرى سيرغي بئساً من أن يستمر بخفي بدنه تحت هذا الغطاء، ما دام ذلك يعني إعفاءه من الحرج و الإنفضاح في حال لو حاول أن يتواصل بصراحه و بدون قيود مع شريكه في الغرفة.

لم ترتسم بعد ملامحه و تقاطيع وجهه بوضوح في مخيلة سيرغي، و لا يعني هذا بأن وجهه هو بهذه السهولة بأن ينسى، أو أن يكون بتلك الدرجة من العادية بأن يتجاهل، فكل ما في الأمر هو، أن سيرغي بكل بساطة لم يرد أن تخط مخيلته وجه شريكه، فهو لا يريد أن يرى صورته مرتسمة في ذهنه إلا عندما يكون ملتقياً إياه وجهٍ لوجه، و ما أن ينفكا عن بعضهما البعض، حتى تمحي هذه الصورة، و لا تُختزن في ذاكرته، و لا يجب أن ندع الإستنتاجات أن تنطلق بنا، و ندعو ما يحدث بين هذين الشخصين بالعداوة و الكراهية، فما يقوم به سيرغي ليس بتصرف عدائي، فالشخص المكروه هو الشخص الذي نستحضر صورته في مخيلتنا أكثر عدداً ممن نحب!.

دخل عليه في يوم من الأيام، في غرفتهما، عند الأصيل، حيث كانت الشمس تودع هذا الجانب من الكرة الأرضية، و تهديها قبل رحيلها بعض من ألوانها الفاقعة و الطاغية،

لونٌ يغطي كل ما يقع عليه، و يمسحه بصبغته الدافئة التي تذكرك بسخونة أيام الطفولة حين يكون متاحٌ لنا قضاء جل ما نخلو من وقت في أحضان أمهاتنا.

و ما أن دخل حتى ألقى نظرة مستعجلة تجاه سيرغي، الذي كان متمددٌ على فراشه الذي سجي بشكل طولي من جهة المدخل، و أكمل مسيره تجاه قمطاره، ليفتح أحد الأدراج، و أخذ يبحث بجدية و بحذر عن شيءٍ ما.

« عن ماذا تبحث يا كلنكسر؟ ».

أكمل كلنكسر بحثه لثواني أضافية، قبل أن يلتفت للخلف و يقابل سيرغي، الذي أعدل من جلسته، و أتخذ حافة السرير مقعداً، و بين يديه كتابٍ سميكٍ قد أغلقه على أصبعه كمرجع للصفحة التي توقف عندها، حك كلنكسر خلف أذنه، و هو ينظر تجاه النافذة، كامشاً عينيه من ما تبقى من وهج أشعة الشمس، وألمح بيده بحركة تعبر عن اللامبالاة.

« لا شيئ مهم، فقط سجائري الإحتياطية التي قد أختزنتها و خبئتها في الدرج قد أختفت، و لا أعلم إن كان هناك سارقٌ ما قد تسلل إلى غرفتنا و سرقها، أم أني قد أستنفدتها منذ زمن، و لكن عقلي الدائم التشتت قد نسي ذلك، . . . ، ماذا تظن هو الأرجح يا سيرغي؟ ».

تنهد سيرغي مظهراً مقاساة ذهنه في الإجابة بالطريقة التي تناسب الوضع و العلاقة التي بينهما، و أعاد تمثيل نفس لمحة اليد التي قام بها كلنكسر منذ قليل، و هو يمط شفته معلناً عن عدم توصله لإجابة معينة.

توجه كلنكسر ناحية النافذة، و جلس على إطارها السفلي، و أمسكهُ بقبضتي يديه بإحكام، و أدلى رأسه للخارج، ينظر من علٍ، و بشكل مقلوب للوحة البديعة التي تشكلت في الخارج، و أخذ يرد التحيات القادمة من الأسفل من المارة الذين ما زالوا يتفسحون في محيط الحرم المدرسي، رافضون الدخول للمبنى إلا مع إنجلاء آخر رمق لضوء الشمس.

خرج سيرغي من الغرفة، متجهاً للطابق السفلي، حيث المكتبة، مريدٌ تدارك الوقت قبل أن تقفل، و أثناء دخوله إليها، لحظ خلاؤها من التلامذة، ما عدا بعض الهسهسات و الضحكات المخبوتة التي كانت تسمع صادرة من إحدى كشكات المراجعة.

لوح سيرغي لأمين المكتبة معلناً عن تواجده، قبل أن ينطلق لرفوف الكتب، باحثاً عن ضالته، و أخذ يتنقل من رفٍ لآخر، و ما أن أعلن إستسلامه من الإستمرار في البحث عنه، حتى لمح غلافه المميز، موضوعٌ بتعسف في قسمٍ لا ينتمي له، و كلما تقدم في توجهه إلى حيث رأى الكتاب، كلما زادت حدة الأصوات و الضحكات، و أصبحت الكلمات أكثر قابلية لإدراكها و فهمها، و كان مضمونها ثقيلاً على ضمير سيرغي المتوجس.

« ماذا لو علم عن ما فعلناه، ألن يغضب و يبرحنا ضرباً؟، فأنا لأخبرك الحقيقة، لا أتحمل الألم، و جسدي سهل في تكوين الكدمات، و أنت رأيت ما حل بغوستاف بعدما أطال في ممازحاته و ألاعيبه، فلقد أشبعه كلنكسر ضرباً يكفيه لآخر يوم في حياته، فإسمع كلامي، و دعنا نشتري علبة أخرى من السجائر من نفس النوع، و نودعها في الغد في مكانٍ من غير المتوقع منه أن يبحث فيه، و في حال أن شك بأن أحداً ما قد سرق سجائره و شرع في البحث عنه، و وجه أصابع اللوم على رؤوسنا، فعندها نستطيع أن نعلن براءتنا، و نوجه اللوم لكنكسر

نفسه لعدم بحثه عن سجائره بشكل جيد، هذه هي الخطة، فدعنا ننفذها في الغد، بعد إنتهاء المدرسة ».

أصدر الفتى الآخر نفساً ساخراً مسموعاً، و بدأ يقهقه معلناً رفضه الصريح بأن يتراجع عن ما فعله، و بأن يعترف بخوفه من ما قد يحدث له في حال أن أنفضح أمره، و عوضاً عن ذلك حاول أن يزيد من الطين بلة بعناده و بكبريائه.

« أنظر إليك ترتجف و تكاد تبكي من فرط الهلع، فماذا توقعت أنا غير هذا أن يصدر منك، كان يجب علي أن أتبع حدسي و أن لا أشركك في فعلتي هذه، أفتظن حقاً بأن شخص بمثل سذاجة و غباوة كلنكسر قد يوتعب لأي شيئ يحدث من حواليه، صدقني عندما أقول لك بأن ذاك الأحمق لن يحس بشيئ حتى لو سرقت قبعته و هي ما زالت على رأسه، و حتى و إن شك بأن شخصاً ما قد سرق سجائرة، فعند ذلك فاللوم سيقع على أقرب الناس إليه حضوراً، أي شريكه في الغرفة، فمن غيره يمكن أن يظنه قادراً على الدخول إلى غرفتهما، و أن يدل المكان الذي خبئ فيه كلنكسر سجائره؟، فكل ما علينا فعله في حال إن سائلنا عن هوية السارق، هو أن نوجه اللوم تجاه سيرغي!، و ذلك الغريب الأطوار لن يتجرئ بأن يتقدم ليدافع عن نفسه، أرأيت كيف هو دائم التوجم و مثبط في همه و مفتر في عزائمه؟، أتظن شخص بتلك الدرجة من التحفظ قد يصرخ و يلعلع ليطلب إصدار قرارٍ ببراءته، صدقني عندما أقول لك بأنه لن يقوم بأي من هذا ».

سُمعت أصوات خرخشات ملابس الفتى الأول و هو يقترب بلهفة من محادثه، طالباً مزيد من الطمأنات و التعزيزات، و سأل بحيرة شديدة.

« ما الذي يجعلك بهذه الدرجة من التأكد و الثقة؟، أهو شيئاً قد لحظته فيه قد أنبئك بهذه الخصال التي أعزيتها لشخصيته؟ ».

طغى صمت قصير، لم يدم سوى ثواني معدودة، و لكنه بدى لجميع الحاضرين كالساعات الطوال، و من ثم أجاب الفتى الآخر بنبرة قوية و واثقة.

« نعم!، أملك الدليل لما قلتهُ، فهذه ليست مجرد تخمينات و تخريصات أقولها لأطمئنك، و لما قد أهتم بتقديم هذه الخدمة لك من الأساس؟، و لفتى جبان و خواف مثلك؟، أتمازحني؟، لكن الواقع هو إني شهدت مثل الموقف الذي قد رسمناه سابقاً يحدث مع سيرغي، و هو لم يدافع عن نفسه، بل كل ما فعله هو إجتراع ما وجه له من لوم و تأنيب، و كان ذلك في ثاني يوم له بعد أن أنتقل لحرم المدرسة، و تحديداً هنا، في المكتبة، حيث أصطدمت به في إحدى ممرات رفوف الكتب، و كنت أنا مقابل وجهي لرف، و هو مقابل الآخر، و تملكني حس فضولي تجاهه، لكوني لست بتلك الدرجة من القرابة منه، و لم نقع في نفس الفصل قط من قبل، فأخذت أرمقه بين كل حين و آخر و أنا أبحث في صفوف الكتب، حتى تعثرت رجلي، و أنكببت على يدي، دافعاً الرف ليسقط على الرفوف المتتالية لتسقط هي الأخرى واحدةً تلو الأخرى، كقطع الدومينو، فكانت غريزتي الأولى هي الهروب، و الأختباء في مكانٍ ما و من ثم الإنسلال من المكتبة حيث لا يراني أحد، و في الحقيقة لم أرى جدوى في فعل كل ذلك، فسيرغي بكل تأكيد سيخبر أمين المكتبة عن ما جرى، و من كان السبب في ذلك، فأي شخص في رجاحة عقله قد يتحمل خطئ شخص لا يعرفه و لم يحادثه من قبل في حياته؟، و ما هي إلا لحظات بعد إختبائي جانباً، حتى وصل أمين المكتبة

يصرخ مطالباً بمعرفة ما قد جرى، و ما أن رأى سيرغي واقفاً مكانه كالتمثال، حتى ألقى اللوم عليه مباشرة، و أخذ يأنبه و يتوعده بالعقاب، و أنا كنت في مختبئي واقفاً على بساط من جمر، أترقب حلول لحظة إنفضاحي، لكن تلك اللحظة لم تأتي بتاتاً، و ليس ذلك فقط، بل أن سيرغي لم ينطق بكلمة واحدة ليدافع بها عن نفسه، . . . ، أترى الآن ما أعنيه بقولي كل ذلك سابقاً عنه، و بكل ثقة؟ »

عاد سيرغي إلى غرفته خاوي اليدين، بعد أن تراجع عن إستعارة الكتاب الذي تعنى من أجله إضاعة وقته في البحث عنه، فهو ما أن سمع تلك المحادثة التي أسترق السمع إليها أثناء تجواله في المكتبة، حتى أنكسفت شهيته للقراءة، و أخذ ذهنه يشغل نفسه بجهد في محاولة توقع مجرى الأحداث التي قد أعلنت عن قدومها، و لحسن حظه أن كلنكسر لم يكن متواجداً في الغرفة عندما دخلها، و إلا لشهده و هو على هذا الوضع المتوتر و المثير للقلق، و شك فيه.

و سنح له إختلاءه بالغرفة لوحدة بأن يأخذ حريته في الدوران على عقبيه و أن يعض أظفاره بين أسنانه، و يعطي ذهنه كل المجال و الحرية للتخطيط لكيفية التعامل مع ما سيواجهه في الوقت القريب.

أزدانت الشمس بصفرتها الحيوية و الرقيقة، التي تمسد بحنية على رؤوس التلامذة الذين أنطلقوا في الساحة، متخذين طريق الخروج من حرم المدرسة، و إطلاق العنان لأنفسهم ليتمتعوا بيوم إجازتهم الإسبوعية، و ليشبعوا لهواً و لعباً من أوائل الصباح لحد أسوداد السماء عند المساء، و حُرِم سيرغي من التمتع بهذا الإمتياز، و من التسكع كما يحلو له، و حتى من تلقي مسحات أشعة الشمس الطاهرة و البريئة من مساوء البشر، حيث أنخمد سيرغي على

سريره، غاطاً في النوم بعد سهر ليلة أمس، بعد أن جافاه النوم من شدة الهوس في ترتيبه مجريات أمور لم تقع أحداثها بعد، و كانت ستارة النافذة مسدلة بإحكام، تمنع دخول أقل شذرة من الضوء، و كان الهدوء يعم أرجاء الغرفة، ما عدا صوت شخير سيرغي المنتظم، و الذي يدل على نومه العميق، و كان كلنكسر قد تركه لوحده منذ أن أستيقظ، و رحل في تزامن مع بقية التلامذة، حيث يفضل الكثير منهم الإرتحال لمفترق أنحاء المدينة على شكل جماعات تضم الأصدقاء الأكثر قرباً مع بعض.

لم يحس سيرغي بمضي الوقت، و هو الذي قد سرح في أحلامه التي عكست توتره و تشكلت أحداثها بمقتضى مسببات قلقه، فكان الصوت المدوي لفتح الباب و الدفع القوي الذي سُلط عليه و الذي أختبر مقدار سعة إرتداد مفاصله لحد إرتطام خشبته بالقمطر، صاعقاً لسيرغي، الذي فزع من نومه، مرتعباً، و سقط من على سريره، و تموضع جسده جاثماً على ركبتيه، و مستنداً على يديه، كأنه من ذوات الأربع أطراف، و لَحَظَ قدمين تتقدمان نحوه بحزم، و ما أن رفع رأسه ليقابل الشخص الذي أوقضه من خمود نومه و أجبره على هذا الوضع المخزي، حتى تفاجأ و صُعق من رؤية كلنكسر، و علامات الغضب و الأزورار على وجهه، بشكل لم يعتاده، و لم يره من قبل موجهٍ إياها نحوه، و لم ينفعه كل ذلك التخطيط و التفكير الذي قضى ساعات طوال ليلة أمس في تصورها، من مجابهة الموقف حال تجسده في الواقع، و إن خانه لسانه في التعبير عن ما يختلج في ذهنه، فإن تعابير وجهه قامت بدورها في إيضاح حجم الهتك في الكبرياء الذي أجتري عليه بهذا التهجم المتعنت و المتعسف، و رضخ

سيرغي آسفاً و مقهوراً لجرعات الضرب المبرح الذي حل عليه، و لم يكن بمقدوره فعل أي شيئ سوى البكاء و الشهيق المتقطع الأنفاس، فيما تحاول يداه صد اللكمات دون طائل.

كم كان ذلك محرجاً و مذلاً، و كم كان ذلك قاسياً و ظالماً، كلما تذكر سيرغي ذلك الموقف طيلة بقاءه في ذلك الحرم، و إسترجاعه لتلك الذكرى، و ظهور تلك الأوجه للتلامذة الذين تجمعوا عند مدخل الغرفة ينظرون بثغور باسمة و يصرخون بأصوات ضاحكة، مشجعون و مؤججون لمزيد من الكيل في الضربات، و لمزيد من التنوع في أساليب التعذيب التي أرادوا من كلنكسر أن ينفذها على سيرغي، و كلما تذكر سيرغي تلك الوضعيات المذلة التي تموضع عليها بدنه، و تعابير الذعر و الجزع التي أجبر وجهه على أن يتلبسها، و الأصوات المحرجة التي صدرت من فمه، و لم يتوقع يوماً أن يطلقها للعلن أمام مسمع هذا العدد الغفير من الناس، كم كان ذلك مثيراً لحنقه و إشتياط مشاعره حتى الغليان، و إرادة تكسير كل ما هو أمامه، و كم أراد الإنتقام، و إسترجاع حقه، و محو تلك الأحداث الشائبة و إستبدالها بالذكريات الجديدة التي تجسد فوزه و إنتصاره، و لكن لا شيء من هذا هو قادر على فعل أيٍ منه، و لا بأن ينطق بحرف واحد ليستعيد بعض من إعتداده بنفسه، و الحقيقة هي أن براءة سيرغي من سرقة علبة السجائر قد أكتشفت بعد بضع ساعات قصيرة من تلك الواقعة، بعد أن تقدم أحد التلامذة، و فضح أمر السارقين بعد أن شهدهما يقومان بالتسلل لغرفة كلنكسر و سيرغي بشكل مثير للشبهة في الأمس، و حتى بعد فك هذا اللبس، لم يُوجه لسيرغي أي إعتذار أو طلب للعفو أو التعويض عن ما حل به، فالأمور مضت و كأن شيئاً لم يكن، و حتى المجرمانِ

سلما من العقاب بعد أن أفرغ كلنكسر جم غضبه على رأس سيرغي، فلم يرى من الداعي أن يوجع يديه مزيداً.

هذا الحنق و القهر لم يكن سهلً إبتلاعه و تخطيه على سيرغي، فكلما دخل عليه كلنكسر في الغرفة، و رأى سحنته المرتخية و الهادئة و الغير مبالية، كلما زادت طبقات و تراكمات المشاعر المكبوتة التي تريد متنفساً لها، فلا يجد سيرغي مخرجاً لها سوى الهروب و الإنسحاب إلى مخلٍ ما لينفس عن ما يعتريه من إختلاجات مختلة في مشاعره، و لم تكن تلك المشاعر مُخرجة بصورة غاضبة و مدمرة تفسد ما حواليها، بل كان البكاء المرير، و العويل المكبوت الذي لا تسمع إلا صداه المخنوق صادراً من أعماق حلق سيرغي هو ما أحلَّ سيرغي لنفسه أن يصدر منه و فقط.

ما بين الكبت للمشاعر المغبونة، و التخيلات المتفاقمة التي أوسعت نطاق حريتها في ذهنه، بدت ملامح حافة الهاوية واضحة على آخر الطريق الذي أستقامت خطوات سيرغي عليه، و لا مُوقِفٍ لزخم مشيه هذا إلا صحوة يجب أن تحدث في أعماق ذاته، تفيقه من خداع الحلقة المفرغة التي كان يظن ذهنه بأنه مُتَخِذها ملاذاً لأفكاره، و كم كانت هذه الأماني باليقظة الذاتية بعيدة المنال و خارجة عن الواقع بحكم معرفتنا لطبائع و عادات سيرغي، فكانت تلك الصدفة التي طرأت في وقتٍ لا يبعد كثيراً عن موعد سقوط سيرغي في هاويته، تدبير إلهي أستعطف بحاله.

طقت خشبة الباب بخفة، و بدت نغمتها كصوت وقع أنامل عازف بيانو متمرس يضع اللمسات الأخيرة لمعزوفة شاعرية، و من بعد أن لم نتلقى الجواب، قامت و بحياء بفتح الباب بمقدار ضئيل، لتطل من الفجوة التي أبانت لسيرغي هوية الطارق.

كانت إهتزازات و إرتجاجات زجاج النافذة منذرة بقدوم عاصفة ريح في وقت ما في مساء هذا اليوم، و في ما بين هذه الرجات المدوية، كان الهدوء المشوب بحس التوتر هو الطاغي على جو الغرفة، لا تسمع سوى خشخشات تحرك ثوب زوجة السيد بيتروفيتش التي جلست على أحد الكرسيين المتواجدين في الغرفة، فيما كان سيرغي جالساً كعادته على سريره كما يفعل كل يوم، سانداً ظهره على الجدار، و ماداً رجل، و ثانياً رجله الأخرى ليلاصق ركبته مع صدره.

أخذ سيرغي يراقب وجه زوجة والده غير مزيحاً نظره عنها و لو للحظة، فيما كانت هي تدير رأسها من جهة لأخرى، تتفحص مقتنيات الغرفة و ما تحتويه من حاجيات، و كان من الواضح إنها لا تقوم بهذه الحركات إلا من داعي الخجل و الحرج من هذا الموقف الذي بدأت تندم على جرئتها في فعله، و بعد أن أصبح من الواضح بأن إهتمامها المصطنع هذا بتفاصيل الغرفة قد طال وقته، واجهت سيرغي، و علامات الجد و الحزم التي صعب عليها أن تتحلى بها قد هيئت جو المحادثة.

« لن أطيل عليك في كلامي، و لن آأخذ مزيداً من وقتك، و خصوصاً بعد أن تفضلت بإستضافتي، . . . ، والدك يريدك أن تعود للمنزل، و هو الذي أخبرني بأن أوصل لك رسالته هذه، و بأن تحزم حاجياتك في أقرب وقت، و أن تُعْلِم إدارة المدرسة عن رغبتك

في ترك حرمها، و هو كذلك يتوقع منك أن ترجع إليه في غضون ثلاثة أيام، . . . ، هذا كل ما في الأمر، و الآن وداعاً ».

نهضت زوجة السيد بيتروفيتش من على الكرسي، و علامات الجد لا زالت متماسكة في هيئتها و التي تلخصت غايتها على وجهها، و توجهت ناحية الباب لتفتحه، و لكن صوت سيرغي الذي قد شب و غدا أكثر رجولة في غضون هذه الأسابيع القصيرة التي لم تلاقيه فيها، قد أوقفها في مكانها، و جعل من يدها تتسمر على قبضة الباب.

« هل ستكونين هناك عندما أعود للمنزل، يا زوجة والدي؟، هل ستستقبليني بكلماتك الحنونة و المرحابة عندما أفتح باب المنزل؟، عديني بأن تفعلي ذلك، و أنا أعطيك وعدي بأن أعود حالاً، و في هذا اليوم لو شئت، هيا يا زوجة والدي، أعطيني كلمتك ».

أستمرت زوجة السيد بيتروفيتش في تجمدها، ما عدا رأسها الذي أَفَلَ لجيدها، و عيناها قد أطبقتا في توجع و حسرة، و أخذت تنفض رأسها ببطئ تصاعد لحد تراقص خصلات شعرها، و ألقت الكلمات الصادمة التي لم يتوقع سيرغي سماعها.

« لا أستطيع أن أوعدك بأي من هذا، فالحقيقة هي أنك لن تراني في منزل والدك مجدداً، فأنا و السيد بيتروفيتش لم نعد زوج واحد، لقد أبطلنا عقد زواجنا بالتراضي، فالأمر كان واضحاً و منذ البداية بأننا لسنا مترابطان بطريقة تجمع شركاءٍ في الحياة، و لذلك يجب أن تعود لمنزلك يا سيرغي، فالهَجرة التي شكلت عائقاً بينك و بين والدك و أبعدتك عنه ستتفتت، و لن تلاقيها عقبة في طريقك بعد الآن، . . . ، فوداعاً ».

فتحت زوجة السيد بيتروفيتش الباب و همت في الخروج، و ما أن أختفت خارج الغرفة، حتى نهض سيرغي بفزع من مكانه، و أخذ يركض بهوس ليتبعها، و ليستوقفها و يطالبها بتوضيح الموقف أكثر، فوقفا في وسط الممر، حيث كان التلامذة قد بدئوا بالرجوع من نزهاتهم الخارجية، و لم يعبئ سيرغي رغم توسلات زوجة والده عن التوقف عن التحدث بهذا الموضوع أمام الجميع و بصوت عالي يسمعه الكل، فكل ما كان يشغل ذهنه و ما يراه هو هي و فقط.

لم يهدأ بال سيرغي في الساعات الطوال التي قضاها في غرفته بعد أن رحلت زوجة والده عنه و الدموع تجري على خديها، و لم تكن نظرات كلنكسر المتسائلة، و هو الذي شهد تملصها و فرارها من بين قبضة يد سيرغي في الممر، مثيرة لإهتمام سيرغي، و في طبع مغاير لعادته، أخذ يدور في أرجاء الغرفة غير آبه لتواجد كلنكسر، متخطياً الفاصل الخفي الذي يقسم الغرفة إلى قسمين، قسمٍ له، و قسم لكلنكسر، يخطو بخطوات آلية، قد حفظت مواطئها في كل شبر من أرضية الغرفة، حتى نهض كلنكسر من مكانه أخيراً، و توجه لسيرغي معترضاً طريقه، ملمحاً له بأن يتوقف عن المشي، و بأن يعلمه و لو بالقليل عن ما جرى، فتخاذل سيرغي في وقفته، و توجه لسريره ليلقي بجسده المتعب و المنهك على الفراش، و حجب وجهه خلف راحتي يديه، و صدر صوته مخنوقاً من بين تفاريج أصابعه، ليفشي عن كل ما جرى، بالتفصيل، دون أن يترك شذرة شاردة.

(الفصل السادس)

لم تمر سوى بضعة أسابيع حتى جفت دموع سيرغي، و كفت عن النزول، و لا فرق بين أن تستمر هذه الدموع أو أن تتوقف بالنسبة لوالده، فهو لم يكن مهتمٌ بتاتاً لما يجري مع سيرغي منذ أن رجع إلى المنزل و ذيله بين ساقيه، خافضاً رأسه، لا يقوى حتى على توجيه كلمة واحدة تجاهه، فسيرغي أدرك بأنه هو السبب في دمار العلاقة الزوجية بين والده و زوجته، و هو سبب رحيلها، فلا بد و أنها ألحت على أن ينفصلا، و لم ترضى بغير ذلك، فهي من حسن أخلاقها و طيبة طباعها، أدركت أن أحداً ما يجب عليه أن يضحي بمكانته في هذا المنزل، و ما دام بمقدورها أن تكون هي الضحية، فهي لن تقبل بغير ذلك، و ها هي قد رحلت فعلاً، و ها هو سيرغي قد عاد إلى مكانه السابق، و لكن فقط رجوع الأشياء إلى أماكنها المعتادة لا يكفي، و خصوصاً بعد أن تنفصل الأربطة التي تجمعها ببعض، و لم يعد هناك أي مجال للحوار بينهما في أي موضوع، فكيف هما يستطيعان فعل ذلك و شبحها ما زال يحوم في أنحاء المنزل، يرش عبقها على كل غرفة تطئها أقدامهما، و في الحقيقة لم يبدي السيد بيتروفيتش إمتعاضه من تواجد سيرغي في منزله، و صبغهُ المتواصل لملامح الحزن و الكآبة على جدرانه فقط من مجرد تواجده فيه، و بل كان على العكس، فهو أستمر في التلميح من بعيد بأن سيرغي ما زال مخولاً بأن يستمر في دراساته، و بأن يحضر معه في أمسياته العملية مع زملائه في العمل، ليتدرج في خبرته قبل أن يستلم مهمته كالذراع اليمنى له في أعماله، و لم يرى سيرغي مانعاً من أن يعود من جديد لهذا المخطط الذي ظن بأنه قد أمتحت مكانته في ذهنه.

مضت الشهور بأيامها المجردة من الأحداث البارزة، قضى سيرغي حياته فيها كما كان يفعل سابقاً، يذهب للمدرسة حيث الكل ما زال يكن له بعض التقدير و الإحترام عطفاً على ذكاؤه و رصانته في التصرف، و إن كان ما زال بعضٌ قليل منهم قد بدأ ينظر تجاهه بعيون مبتسمة تذكره بتلك الحادثه التي وقعت بينه و بين كلنكسر، و كم كانت تلك النظرات مستفزة لمشاعره، تلمح له بأن مصيره بأكمله معلق تحت مخالبهم، ففي حال لو أرادوا فضحه فهم ليسوا مخولون بالأنصراف عن فعل ذلك، لكن الحقيقة هي أن تلك الحادثة لم تكن بتلك الأهمية إلا في مخيلة سيرغي، التي فاقمها في حجمها و أعطاها قدرٍ أكبر مما تستحقه، و بالإمكان القول مثل الشيئ عن كلنكسر و موقف سيرغي منه تجاه الحادثة، فلم يكن ما فعله كلنكسر بسيرغي إلا واحدة من مشاجراته التي لا تنتهي و التي لا تعداد لها، فكمن مشاجرة قد أفتعلها كلنكسر بعد ذلك اليوم؟، و لكن سيرغي عاند تلك الحقائق، و قضى جل وقته أثناء تواجده في المدرسة يحاتي الساعة التي تنقلب جميع نظرات الناس تجاهه لتشابه نظرات الطلبة العارفين لما حدث له.

على الرغم من كون السيد بيتروفيتش قد غدا تصرفه تجاه سيرغي غير مبالي و مهتم لما يفعله أو يفكر فيه، إلا أن خبر تراجع درجات سيرغي في الآونة الأخيرة لم يفته، و لم يستطع تجاهله، فهو قد يسمح له بالتخاذل و الإنغلاق على نفسه قدر ما يريد، و أن يختلق معاني غريبة لتصرفات الناس تجاهه كما يحلو له، و أن أوصله ذلك لحد الجنون و الهوس، و لكن الشيئ الوحيد الذي لن يسمح له بفعله أبداً، و لن يتغاضى عن موقفه تجاهه، هو درجات سيرغي و تقديره التعليمي، فهذا جانب لا يمكن أن ينهار من المنظومة الإنسانية ألا و هي

الشخص المدعو بسيرغي، كما لا يسمح بسيارة أن تفقد محركها، و إن رضى بفقدانها لأبوابها و نوافذها، و حتى أطر عجلاتها، فكما تغدو السيارة عديمة الجدوى بدون محركها، فالإنسان من وجهة نظر السيد بيتروفيتش تنتهي فائدته و صلاحيته إن كان بدون محصل تعليمي مرتفع.

وقف السيد بيتروفيتش أمام سيرغي كالسد المنيع، و لم يخفض ضغطه عليه في خضم مسائلته له عن ما الذي يجري معه حتى مع رؤيته لسيرغي ينكسر على ذاته حتى أنتهى به الأمر بأن يدخل في نوبة جنونية أخذ يصرخ فيها و يمزق ثيابه و كأنه يحاول إخراج شيئاً ما يعتور في داخله لا يستطيع تخليصه و إنفاذه من جوفه الضيق، و أستمر سيرغي في حالته هذه و السيد بيتروفيتش غير مبالي و لا يتراجع عن طلبه بالكف عن هذا التمثيل المخزي و أن يجيبه وجهٌ لوجه كرجل بما هو السبب لتراجع درجاته، و لم تنجح محاولات خدم و عمال المنزل في إيقاف السيد بيتروفيتش عن تصرفه هذا الذي يفاقم حالة سيرغي، و لم ينفع جدلهم إياه بأن ما يبديه سيرغي ليس بتمثيل و إنما هو حقيقة واقعة، و لم تركد هذه الحقيقة في ذهن السيد بيتروفيتش ألا بعد أن أستقر سيرغي على الأرض مغشياً عليه بعد أن تفاقمت نوبته لحد لم يعد بإمكانه تحمله.

أدخل سيرغي المصح النفسي و هو في عمر السادسة عشر، و لم يخرج منه إلا بعد سنتين من العلاج المكثف، و التحليل الدقيق الذي حاول أن يكشف به الأطباء كل نواحي سيرغي القلقة من نفسه، و بالنسبة لشخص مثل سيرغي من الذين يحافظون على أفكارهم في أعمق أغوارهم الذهنية، لم تكن مهمة الأطباء بتلك السهولة، و لا يمكن القول بأنها كانت ناجحة، و لم يرجع سيرغي إلى منزل والده و هو غير متعافي فقط، بل هو رجع و هو على حال

أسوء، و لم يجد السيد بيتروفيتش مفراً في حال لو أراد إبقاءه في منزله إلا بإخباءه في إحدى الغرف الخلفية، حيث لا يعلم أحد عنه شيئ، و لا يحس أحد بتواجده، و لم يكن هذا يعني بأنه كان ممنوعاً بتاتاً من الخروج من غرفته، أو حتى من التفسح في أرجاء المنزل، و لكن فقط في أوقات محددة يكون فيها المكان خالياً من الضيوف.

طال تفسح سيرغي في الفناء الخلفي للمنزل في إحدى المرات، و كان من الصدفة أن أتى أحد ضيوف السيد بيتروفيتش ليزوره و يحادثه في بعض المواضيع المتفرقة، حيث كان هذا الضيف متلزقاً بالأثرياء، ينقل لهم الأخبار الجانبية التي لا يملكون هم لها الوقت ليستجدوا آخر أخبارها، و كانت المصادفة الأخرى أن أستضاف السيد بيتروفيتش هذا الضيف في مكتبه الذي تطل نافذته على الفناء الخلفي، و من توالي الصدف إن كانت هذه النافذة مفتوحة، و كأنها تدعي سيرغي بأن يسترق السمع من خلالها لما سيتحدثان عنه.

أخذ الرجلان يتحاوران في شتى المواضيع، بعضها ذو أهمية و ثقل، و أخر تافهة و هشة، و سيرغي الذي كان يعيش يوماً صحو و جيد، ألصق جسده على الجدار المجاور للنافذة، يسترق الأحاديث بدون أستوعاب لما هو الهدف من هذا الفعل، و لكنه أيضاً لم يرى ضرر من مجرد الوقوف هنا، فهو لديه المتسع من الوقت ما يكفي ليستمع لكل الأحاديث التي تجري في المنزل لو أراد، و ما هو إلا رهين حبس هذا المنزل.

طفقتا أذنا سيرغي لدى سماعه الضيف يذكر اسم زوجة والده، و يتلو أحداث من آخر مستجدات حياتها التي تعيشها بعيداً عن هذا المنزل و عنهم، و لم يبد السيد بيتروفيتش أي مانع أو أعتراض على سماع أخبار عنها، و بل هو لا يبدو و أنه يضمر أي عاطفة تجاهها مهما

كانت منذ أن فارقها، سواء أكانت جيدة أم سيئة، فسماعه لإسمها لا يعدو أن يكون مجرد طرو لشخصية يعرفها و يمتلك صلة معها، حالها كحال زملاؤه في العمل.

كانت الكلمات تتدافع من فم الضيف في حماس لكي يفضي الأخبار التي جمعها من هنا و هناك، و كأنه يترقب مكافأة سيغدقها عليه السيد بيتروفيتش ما أن ينهي كلامه.

« رأيتها، طليقتك تلك، و هي تعبر السوق، تشتري بعض الحاجيات، و تقف بين الحين و الآخر لتخاطب نساء من معارفها تصطدم بهن صدفة أثناء تسوقهن، و على فمها أبتسامة غير آبهة، و بملامحها الشابة، تبدو كعزباء لم يسمح لها عمرها الريعان بأن تختبر الزواج من قبل، مجرد طفلة على باب البلوغ، فلحقتها لأرى أين سكنها، و مع من هي مرتبطة حالياً، هذا إن كانت بتلك العجلة بأن ترتبط بهذه السرعة بعد أنفصالكما، فرافقتها من بعيد، و أتبعتها حتى وصَلَتْ إلى مبنى متوسط الحجم، و دَخَلَتهُ، و عند هنا تنتهي رحلتي معها، فحارس المبنى رفض السماح لي بالدخول لكوني غير مخول لذلك، و حاولت أن أخدعه بقولي بأني مستعلم، و أريد أن أتفحص المبنى لأرى أن يعجبني و أرغب في إستئجار إحدى شققه، و لكنه أخبرني بأن هذا المبنى هو خاص للمستأجرات من النساء العازبات فقط، فسألته عن الشابة التي دخلت للتو، و ألمحت بأني قد رأيتها في السابق برفقة رجل قد يكون خطيبها، فرد علي بالقول بأن ذلك غير ممكن، و لا بد بأني قد تهيئ لي وقوع ذلك، فتلك الشابة قد أخبرت صاحبة المبنى عند المقابلة الأولى بأنها قد تيتمت لتوها، و هي تريد أن تعول نفسها و لا تعتمد على رجل بتزوجها في سنها الصغير هذا، و لذلك هي تريد السكن هنا لفترة طويلة لو أمكن ذلك، و ذلك يا سيد بيتروفيتش، قد أزاد من فضولي، و أرغبني بالإطلاع أكثر على مجريات حياتها، و إستكشاف

سبب هذه الكذبة التي أخبرتها للمالكة، و لذلك أخذت على عاتقي مهمة مراقبتها لمزيد من الوقت، و أخذت أتربص عند مبناها يوماً بعد يوم، ألحقها من مكان لمكان، و أستكشفت بأنها تعمل في وظيفة تشغيل ماكينات الخياطة في إحدى المصانع، و بأنها لا تمتلك أي صديقة في مكان عملها، على الرغم من أن علاقتها معهن هي جيدة، و لا يبدو بأن هناك أي شيئ آخر يشغل حياتها سوى العمل و ملازمة شقتها، و لو سألتني يا سيد بيتروفيتش، فسأقول بأنها ما زالت متأثرة بهذا الفراق الذي فرض عليكما، و بأنها ما زالت تحاول مجابهة مشاعرها و تحاول خمدها، و ما تلك الكذبة التي قالتها عن كونها لم تتزوج قط من قبل، إلا كذبة قد أطلقتها تجاه نفسها، فلا سبيل لها هنا لتخطي هذه المحنة سوى النكران، ألا تظن كذلك يا سيدي؟ ».

لم يبقى سيرغي مكانه ليسمع رد والده، و معرفة موقفه من نتائج الإنفصال القاسية التي حلت عليها، و إنما رجع لغرفته، يذرعها جيئةً و ذهاباً، كما يحلو له أن يفعل طوال وقته فيها، يفكر في زوجة والده السابقة، و ما تمر به، و التداعيات التي تقيد حياتها، و تفرض عليها الكمود و الحزن، و لم يرى سيرغي مخرجاً من أن يعترف بأن مسبب كل هذا هو نفسه، و لا غير، فلولاه لما أنفصلا، و لولاه لما تدمرت حياتها، و لم يكن هذا الإدراك إلا كالختم الذي أكد له مصداقية مشاعره بالأحباط تجاه نفسه، و بأنه لا يرتكب أثماً تجاه نفسه عندما يحرم نفسه من التمتع بالحياة و ملذاتها، تماماً كما تفرضه هي على حياتها، فإن كانت هي الضحية، و مع ذلك هي بهذا الحال، فما الذي يعطيه هو الحق بمخالفة هذا المبدأ، إن كان هو يرى نفسه يملك و لو القليل من الإنسانية.

على الرغم من العوائق التي فرضها سيرغي على نفسه، و السنتان التي أضاعهما بلا دراسة، إلا أنه بشكل ما أستطاع أن يتخرج من مدرسته، و بتحصيل عالي، بعد أن خدر نفسه من عوامل العالم الخارجي و تأثيره عليه، فلن تجده يتلفت برقبته يميناً أو يساراً أثناء ذهابه في مشوار إلى مكان ما، و لن تجده يخاطب أي أحد إلا بمقتضى الضرورة، فعلاقته مع العالم الخارجي هي غائية و حسب، غايتها إرضاء رغبات والده، و إشباع مطامحه لما يريده أن يكون عليه، و ألا يكون عالة عليه، فهو قد دخل آخر سنوات المراهقة، التاسعة عشر، و لم يعد طفلاً صغيراً، و أمامه الكثير ليفعله ليلحق أترابه و يوازيهم في ما وصلوا إليه، فهو في أول يوم دراسي له في الجامعة لحظ الفارق بينه و بين زملاؤه الذين يصغرونه بسنتين، و كم يبدون سذج مقارنة مع أترابه الذين يراهم في ساحة الجامعة، و كم يبدو هو كالأحمق المتخلف الذي يرافق الأطفال لعدم إستطاعته مجاراة أقرانه.

و أحس سيرغي بالعار يلحقه كلما ألتقى بأحد زملاؤه القدم، و كلما سألوه عن حاله و عن السبب الذي جعله يتخلف عنهم بهذا المقدار، فهو من حرجه و من قواعده الصارمة التي فرضها على نفسه بعدم التحدث في الأمور الجانبية لا يرى مفراً سوى أن يتجاهلهم، و أن يهرب من أمامهم، و أن يحرص على أن يأخذ حيطته في تجنبهم مطلقاً، و لكن مهما حاذرت و شددت من إنتباهك تظل هناك بعد الشاذات التي تفلت من رقابتك.

لم يتح كلنكسر لسيرغي الفرصة بأن يهرب من أمامه، و خصوصاً و هو قد سمع من بعض زملائهم الآخرين عن أفعال سيرغي و تصرفه تجاههم، فحاصره و لم يفلته من قبضته حتى أخذ منه موافته على الجلوس معه على إحدى طاولات ساحة الجامعة، و الحديث معه

عن ما جرى، و كان كلنكسر صريحاً منذ البداية بأنه يدرك بأن تلك المرأة التي رآها تهرب منه في تلك المرة و حدثه عنها لها علاقة بما حل به.

لم ينتج الكثير من حوار سيرغي مع كلنكسر، و أدرك كلنكسر بأن محاولة إنتزاع أي معلومة قيمة منه ستكون مهمة صعبة لا يسمح له وقته و لا مقدار إهتمامه بالموضوع في محاولة إتمامها، فكان خياره الأنسب هو ترك سيرغي لشأنه، فكلاهما فصيلة غريبة عن بعضها من البشر و لا تتلائم، فكلنكسر على الرغم من عدوانيته و شراسته في بعض الأحيان، إلا أنه في معظم الأوقات شخص سهل الحديث و المعاشرة، لا يرفض تقدمات أي أحد تجاهه إن حاول كسب رفقته، هذا ما دام الشخص الآخر هو المبتدأ في عرض الصحبة، و سيرغي على الجانب الآخر، شخص منعزل و معتكف على نفسه، لا يحب الناس و ضوضائهم، و إن كان لا يمقتهم، إلا أنه يملك بعض التحفظات تجاههم، و لا يمنع نفسه من إبتداع أغرب الأفكار و السيناريوهات بحقهم في مخيلته، و محاسبتهم و الحكم عليهم من تصرفاتهم التي يبتدعها نيابة عنهم في مخيلته، و هو لن يتقدم يوماً لطلب صحبة أياً كان، فالعلاقة بين كلنكسر و سيرغي مقطوعة ما دام الأثنان على طبعهما المعتاد.

تعلم سيرغي درسه، و لم يطلب السكن في حرم الجامعة، على الرغم من كون ذلك سيسهل عليه المشقة و التعب، و إنما أختار الإستمرار في رحلته اليومية في الذهاب إلى الجامعة من المنزل، و من ثم العودة إليه حال إنتهاء دروسه، و في أحد الأيام، طلب أستاذ من الأساتذة من الطلاب شراء بعض الحاجيات الضرورية لتسهيل تعلم الدروس التي سيلقيها عليهم في الحصص القادمة، و طلب جلب هذه الحاجيات بسرعة و بدءاً من الغد، فلم يرى

سيرغي خياراً أمامه سوى الأنعطاف في طريق رجوعه إلى المنزل ليتجه للسوق لشراء الحاجيات، و هو في الحقيقة قد حاول قدر المستطاع الإبتعاد عن الجلبة و الإزعاج، لإشتداد كرهه لها في السنوات الأخيرة الماضية، فكان تردده قليل للأماكن التي يحتمل تجمع حشد من الناس فيها، فرسم سيرغي خطة بأن يتجه مباشرة للمتجر الذي يريد و بأن يشتري الحاجيات و أن يخرج منه بأسرع ما يستطيع، و كان ذلك ما فعل، فدخل المتجر، و شرى الحاجيات، دفع ثمنها، و خرج من المتجر، و لكن قدميه تسمرتا مكانهما مما رآه على الرصيف الآخر من الشارع.

أنطوى سيرغي على جانب طريق الرجوع للمنزل المنعزل، بعد أن أستذكر ما رآه أثناء خروجه من المتجر، كلنكسر و زوجة والده السابقة، يمشون بجنب بعض، و يداً متعاضدة مع اليد، و أبتسامة مختلسة على وجهيهما، بشكل لا يدع مجال للشك لحقيقة ما يحدث بينهما.

دخل سيرغي المنزل، و ملابسه و بدنه غاط في العرق، و بشرته مصبوغة بالحمارة و كأن ماء حار قد سكب عليه، قابله والده صدفة أثناء صعوده السلالم، و رأى الحال التي هو عليها، و في تخاطر ذهني غير معلن، أدرك السيد بيتروفيتش أن الأمر يتعلق بزوجته السابقة، فهو لا يرى سيرغي بهذا الإنهاك إلا إذا تعلق الأمر بها، و هو في الحقيقة، أي السيد بيتروفيتش، قد وصلته الأخبار مسبقاً عن ما يجري في حياة زوجته السابقة و آخر مستجداتها، و لو أنه لم يدرك العلاقة التي تربط عشيقها الجديد مع ابنه، و هذا الجهل هو ما جعله يتفاجأ برؤية سيرغي بعد بضع ساعات منذ دخوله المنزل، نازلاً من السلالم، و بيده حقائب متعددة، و على وجهه علامات الجد و الحزم، و بدا عازماً على القيام بما يخطط له، مهما أقتضى الأمر،

فلم يمنعه السيد بيتروفيتش من الخروج، و لم يخاطبه بشيء مطلقاً، فسيرغي لم يكن المنهك الوحيد في هذا الموضوع الذي طال أمره، فحتى السيد بيتروفيتش قد تعب و مل من هذه اللعبة السخيفة، و أراد الإنتهاء منها، و أن أقتضى الأمر رحيل ابنه الوحيد عنه، و لكن ما لم يدركه السيد بيتروفيتش هو أن هذا الرحيل سيدوم حتى آخر عمره.

تنهد ميتيا من بعد أن أتم سيرغي إخباره برحلة حياته أثناء شبابه، و قام من مكانه و أخذ يسبط قماش بنطاله بعد أن تجعد من مدة جلوسه الطويل، و كان قلقاً من أن يلتفت للخلف ليلقي نظرة تجاه سيرغي و يرى الحال التي هو عليها بعد أن أستذكر متاعبه الشاقة التي حاول لسنين طوال أن ينساها، و كان مصمماً منذ البدء بأن يعزي سيرغي عند إنهاءه حديثه، مهما كان محتوى هذا الحديث، و هو توقع بأن يكون محزناً و مثيراً للشفقة، لا شك في ذلك، و لم يخب ظنه، فهذه مشقة كبيرة قد تكبدها سيرغي في مرحلة عمرية هامة، قد أفسدت عليه مراحله الأخرى، و سدت عليه الطرق للتمتع بحياته كما يفعل الجميع، فوقف ميتيا مكانه، و أراد أن يمنح بعض الوقت لكليهما بأن يأخذا أنفاسهما، و بأن يسمحا لبعضٍ من الجو النقي بأن يتكون حواليهما، و ما أن سنحت الفرصة لميتيا لكي يضيف من عنده، و يشرع بالكلام المطمئن و المعزز، حتى تراجع عن فعل ذلك، و رأى أنه من المتعدي منه أن يغدق كل هذه الشفقة تجاه سيرغي، و أن كان محتاجٌ لها، إلا أنه و لا بد أن يملك من العزة بالنفس بأن يحرج من تقبل كل هذا العطف الفائض مرة واحدة، و من شخص غريب، فما كان من ميتيا سوى أن ينظف حلقه بالنحنحة، و يعلن بصوت قوي بأن موعد إشراف قطاره قد أقترب، و

رحيله في هذه اللحظة محتم، فتوجه نحو الباب و فتحه خارجاً منه، و أغلقه خلفه، غير ملقي أي نظرة، و لو كانت خاطفة، تجاه سيرغي.

(الفصل الأخير)

كان البرد قارصاً أكثر من المعتاد، و الرياح تهب بقوة و على دفعات متقطعة و مفاجئة، تزيح كوم الثلج المتساقط و تبعثره في الأرجاء، كأنها طفل على الشاطئ يلعب بالرمال بكل عبثية، و سماء الليلة السوداء جعلت من شكل الثلج الهاطل من الأعالي يبدو كحبات الملح المنثورة.

لم يحميه المعطف الرقيق الذي أرتداه سيرغي من لسعات الزمهرير الناخلة للعظام، و لا القبعة الصغيرة التي أعتمرها على رأسه من هبات الريح التي كانت مع كل لفحة تنزعها قليلاً قليلاً عن فروة رأسه، و مع كل هذا، لم تطرأ في ذهن سيرغي فكرة القيام من على الكرسي الذي جلس عليه على جنب الرصيف و أن يدخل مبناه الذي يقبع قباله مباشرة، و لما قد يفكر في ذلك و ما يقوم به هو إلا شعيرة مقدسة، لا يستطيع الإستمرار في دنياه بدونها، فأن نطلب منه التخلي عنها، هو مثل أن يُطلب منا أن نتوقف عن التنفس، فنحن لا نتنفس لمتعة نستجلبها من فعل ذلك أو لكونه أمراً يخطر في ذهننا أن نفعله، فهذه غريزة، و مطلب حيوي، لا يمكن الرجوع لأسبابها بالعقل وحده، إلا بالرجوع إلى أصولنا السحيقة التي لا نعرف عنها شيء و التي نشأت و تطورت خلالها هذه العادة، و الأمر مثله مع سيرغي، الذي لا يستطيع التوقف عن الجلوس في ليل كل يوم على هذا الكرسي بعد أن يخلو له المكان، إلا بالرجوع إلى الأسباب السحيقة في ماضيه و إستكشاف أسباب ذلك، و يبدو لنا و له بأن ذلك حدث في نهار هذا اليوم، عند حديثه مع ميتيا و إفصاحه له عن ما حدث له أثناء طفولته، و إن كان الأمر كذلك، فما الذي يجعله يواصل في الإستمرار على أطباعه القديمة التي

أعتاد عليها، أفلا يجب عليه الآن بعد أن تخلص من عبئ الذكريات القاسية و ثقلها أن يرتاح و يرتخي بدنه و ينتعش؟، ألا يجب أن يكون بعد مروره بكل هذا أن تعتلي ثغره إبتسامة مشدوقة تعبر عن تخطيه للصعاب و ألقاؤه إياها جانباً؟، و إلا فما الخطأ الذي حدث هنا؟، و لماذا يتصرف سيرغي و كأن شيئاً لم يحدث خلال هذين اليومين الماضيين؟، كل هذه أسئلة يجب الإجابة عليها قبل أن نقبل الوضع الذي سيرغي لا يزال عليه و يرفض أن يبارحه، و لا يبدو بأن سيرغي مهتماً بهذه التفاصيل التي يراها من وجهة نظره جانبية، و لن يجيب على أسئلتنا هذه في حال لو سألناه عنها، فهو قد أنغلق على نفسه مجدداً، و بشكل نهائي و حاسم لا يسمح لأي فتحة بأن تتشكل في شرنقته لنمرر من خلالها صوتاً أو أصبعاً ليصله، و إن كانت هذه الحال التي أنتهى عليها سيرغي، فلا يجب علينا أن نتبع سبيله و نقتاد به و أن نتخاذل نحن أيضاً في تقصينا لما يجعل الأمور تنحرف عن طريقها، و عوضاً عن ذلك لندع سيرغي و شأنه و نتركه هنا لوحده، و لنعود نحن إلى ماضيه و ذكرياته بمفردنا، و بدون أذنه!.

أنتقل سيرغي للحرم السكني للجامعة، و أنكب على دراساته طوال فترة دراسته فيها، غير تاركاً أي مجال أو فسحة لأي شيء آخر، و مهما حاول أحداً من زملاؤه أن يحادثه في شيء ما، فهو لا يدير حتى وجهه ليقابله، و يتجاهله تماماً، مما جعله مشهوراً و معروفاً من قبل التلامذة الأخر، بأسلوبه الغريب و البغيض، الذي جعله محط سخرية و إنتقادات لاذعة، لم يعطها سيرغي أي بال، و من حسن حظه أن كانت الغرفة التي أنتقل لها ذات سرير واحد، فكانت الغرفة كلها له و أن كانت أصغر من الغرف الأخرى، و بل كان سيرغي يفضل كونها

بهذا الصغر، الذي جعله يشعر بدفئ الجدران يحيط به و يحتضنه، و بالحرارة المحتبسة بين هذه الجدران تغذيه عوضاً عن الحرمان الذي فرضه على نفسه إزاء علاقاته مع الآخرين.

أكمل سيرغي دراسته و تخرج بمعدل مرتفع، و أتجه مباشرة لسوق الوظائف، و لم يكن من الشاق عليه بمعدله المرتفع أن يجد وظيفة جيدة يصرف منها على نفسه و تكفيه لحاجاته القليلة، و كان هذا التغير و الإنتقال، من الجامعة إلى العمل، فاتحة خير على سيرغي، الذي أنظم خلالها إلى مصفوفة المجتمع، جاعلاً من حاله كحال الجميع، يقضي معظم يومه في العمل، قبل أن يعود إلى شقته المستأجرة، ليقضي ما تبقى من الوقت في فعل ما يحلو له، و في حال سيرغي، كانت القراءة هي مصب إهتمامه، لا يترك الكتاب من يده إلا بعد أن يحس بألم موجع يحرق عينيه من شدة الإطلاع و القراءة.

لم يعامله زملاؤه في العمل كغريب الأطوار الذي هو عليه، لكونهم لم يختبروه بعد و لم يدفعوه قليلاً ليروا ردود فعله و طرق تصرفه، فتعاملهم معه كان محدود في نطاق ما يتطلبه العمل لكي يُقضى، و لكن ما كان واضحاً لهم هو أن سيرغي يحب أن يحيط نفسه ببعض الحدود ليحتفظ خلف أسوارها بخصوصيته، و لم يكن غير ذلك واضحاً لهم، هذا حتى حل على مكتبهم ضيفاً ثقيلاً قد أدلهم إلى مكامن الخطأ في طبع سيرغي.

كان كلنكسر على وشك الخروج من المكتب بعد أن أنهى العمل الذي أتى من أجله، و توقف على عقبيه لرؤيته ظهر سيرغي المحدودب الذي يعرفه من بين كل أظهر الناس، و كانت مقابلة كلنكسر صادمة لسيرغي، جعلته يشدد حصونه على قدر ما تستطيع أن ترتفع إليه، و حاول التملص من محاولة كلنكسر الحديث معه و كأنه صديق قديم لم يره منذ

سنين، و في الحقيقة كان كلنكسر فرحاً في البدء لرؤيته لسيرغي، لكن هذه الفرحة سرعان ما أتضح سببها الخاطئ، فما هي إلا ردة فعل لحظية، تطري علينا في كل مرة نرى شخص أو شيء يذكرنا بأعز فترات حياتنا، و لكلنكسر، كانت تلك الفترة هي فترة المدرسة و الجامعة، حيث كانت مكانته آنها في قمة السلم الأجتماعي، و سرعان ما أن خبتت هذه الفورة في الذكريات الضبابية حتى أدرك كلنكسر الذكريات الحقيقية و بأن لا شيء هنا يجمعه و سيرغي سوى تلك الذكريات الغريبة و المعتكرة، فمن صموت سيرغي الواجم و الدائم، إلى الإلتباس الذي وقع بينهما و جعل من سيرغي حقيبة للكمات يديه، إلى مصادفته لزوجته الحالية تتملص من بين يدي سيرغي و تهرب منه و ما سمعه لاحقاً منه عن نوع علاقته معها، و في الحقيقة هو لم يمانع الأمرين الأولين، و لكن تلك الذكرى التي ما زالت عالقة في ذهنه، ألا و هي رؤيته لزوجته تعارك سيرغي و تفر منه، ما زالت تتطلب بعض التوضيح و فك اللبس، و كلنكسر أصبح من الخبرة بأن يدرك بأن سيرغي بكل بساطة ليس من النوع الذي يمكنك أن تحادثه كأي شخص عادي، تسأله و هو يجيب، فهو قد حاول ذلك معه مراراً من قبل دون جدوى، فما كان منه الآن سوى مناوشته و إبراد قهره و حنقه تجاهه.

لأسباب تتعلق بالعمل، أستمر كلنكسر في معاودته للمكتب الذي يعمل فيه سيرغي، و أثناء كل زيارة، كان يفضي و يفصح بتدرج عن سوابق سيرغي، و عن أطباعه و تصرفاته عندما كانا زميلان في المدرسة، و عن كيف كان ينظر الجميع تجاهه، و عن سخريتهم منه و من أفعاله الغريبة، و شيئً فشيئ، بدأ زملاء سيرغي في عمله ينظرون تجاهه بنفس النظرة التي كان زملاؤه في الدراسة يرمونها تجاهه، فهو لم يعد مجرد شخص يحب العزلة و الوحدة و حسب،

بل هو الآن شخص معاق أجتماعياً و محدود في مشاعره، و ما أن أكتملت هذه الصورة عنه في أذهن زملائه في العمل، حتى بدأت التنمرات و التعليقات الساخرة توجه نحوه معلنة بأن عهد جديد من المقاساة و المشاقاة قد دخلت حياته فيه.

توقف كلنكسر عن المجيئ إلى مكتب سيرغي بعد أن أنهى جميع أعماله، و لم يعد من المتطلب منه الرجوع مجدداً إلى هناك مرة أخرى، و لكن ذلك لم يكن مانعاً من أن يتلاقى هذان الأثنان صدفةً أثناء تسوقهما في أحد المتاجر.

كانت صدفة غير مرغوب حدوثها من كلى الطرفين، فسيرغي لم يرد أن يرى كلنكسر مرة أخرى مطلقاً ما دام هو يتنفس، و كلنكسر أيضاً لم يرد رؤية سيرغي، و تحديداً هذه المرة، لكونه كان برفقة زوجته، التي أراد و مهما تطلب منه الأمر أن لا تلتقي بسيرغي أبداً، خصوصاً و هو يعلم بتشبث سيرغي بها، و هوسه المرضي تجاهها، و كم هي عانت الكثير بسبب توهماته، و كانت صدمتها أزاء هذا اللقاء كبيرة و رازحة في ثقلها على عقليتها، و رؤية البياض يصبغ وجهها جعل من كلنكسر يريد أن يشبع سيرغي ضرباً حتى يفارق هذه الحياة، و لكنه لم يعد ذلك الفتى المتهور الذي كان عليه سابقاً، فهو رجل بالغ الآن، لا يشبع كل رغباته الهمجية، فما كان منه سوى أن يفلت ما بيده من مشتريات، و أن يسحب زوجته من يدها، و يخرجها معه من المتجر، فيما ظل سيرغي لوحده واقفاً مكانه، و على وجهه علامات التمايع النفسي، و الإنحلال الذهني، فكل الأربطة التي تبقيه سليماً بما فيه من الكفاية لينضبط في المجتمع قد أنحلت، و أخذتا يداه بالتدمير و التكسير، كل ما حوله قد تضرر، و كل شخص حاول الإقتراب منه قد تأذى.

لم تكن تلك المرة الوحيدة التي تفلت فيه أعصابه بهذا الشكل الحاد، بل هي أصبحت عادة تطرء عليه في كل مرة يجد نفسه في موقف يذكره بأحداث الماضي و تاريخه المظلم، و بالطبع أوقعه ذلك في مشاكل لا تعد و لا تحصى، مع الناس و مع السلطة.

و لكن كمثل كل التغيرات التي تطرء علينا، نحن لا نلحظها في خضم حدوثها، بل هي تتدرج في تغيرها، و في كثير من الأحيان بمسببات لا نشعر بها، و تنتهي بنتائج لا نتوقعها و لا ندرك كيفيتها، و هذا ما حدث مع سيرغي، الذي شيئً بشيء قد خمدت أعصابه، و لم تعد تنفلت كما كانت عليه في تلك الفترة العصيبة التي مرت حياته بها، و إنما أصبحت تلك الأنفلاتات تحدث في أعماقه، حيث لا يتضرر منها أحد سواه.

أنتقل سيرغي من عمله، و أرتحل من مدينته، بعد تلك المصادفة مع كلنكسر و زوجته، و هذه أيضاً أصبحت عادة متكررة، أي عادة التنقل و الإرتحال، فهو ما أن أنتقل أول مرة إلى مدينة أخرى، حتى بدأ الندم يأكله، فهو بإنتقاله هذا قد قطع أي فرصة ليقابل فيها زوجة كلنكسر مجدداً، و ما كانت أنتقالاته الأخرى إلا محاولة منه للعب بنسب الفرص، فمن يدري، يمكن أن يقررا هما الأثنان أيضاً أن ينتقلا إلى أحدى المدن التي يتصادف تواجد سيرغي فيها.

و لكن هذا ما لم يحدث لبقية حياة سيرغي، و بعد فترة من الزمن، تناسى السبب الذي حداه لكل هذه التنقلات، و بهذا أصبح هذا الطبع عادة بالمعنى الحقيقي للكلمة، و أستمرت السنون بسيرغي على هذا الحال، حتى نعود مجدداً لنقطة البداية، حيث أخبرنا هو بنفسه عن قصته مع ابنة مالكة المنزل، و المزارعون المستأجرون، و يتضح لنا هنا، بأن تصرفه

مع تلك الشابة، أي ابنة المالكة، ما هو إلا إستمرار لهوسه تجاه زوجة كلنكسر، أو بالأحرى تسميتها بزوحة والده السابقة، و هو آنذاك قد تناسى كل ما فعله معها، و لم يدرك بأن ما يفعله مع تلك الشابة هو بذاته ما فعله معها، و عند هنا يُطرح أمامنا سؤال مهم، ألا و هو، هل يمكن أن يكون تصرف سيرغي تجاه زوجة والده أثناء صباه أيضاً ما هو إلا إستمرار لعادة أقدم تَعودُ لفترات طفولته السحيقة، و لكنه لا يدركها؟، هذا سؤال صعب، لا يمكن أن يجيب عنه، لا سيرغي، و لا حتى نحن، على الرغم من كوننا الساردون للقصة!.

نرجع من الذكريات للواقع، و من نافذة غرفة سيرغي، نطل عليه من الأعلى، لنطمئن عليه، و هو الذي ما زال جالساً على الكرسي الموضوع على الرصيف، و الثلج قد كسى ثيابه، و دفن حذاءه تحت ركامه، و من هذا المنظور، و من جمود سيرغي و توقفه عن الحركة، من الصعب علينا أن نطلع على حالته، و ما أمامنا خيار آخر سوى أن نفجع أعيننا على وسعها، و نراقبه بحذر لنرى أي حركة قد تصدر منه، و ما أن نطمئن و نريح قلقنا، حتى نستطيع بعدها أن نتركه نهائياً.

"تم"

محمد البحريني

2022/2/27